العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الإعلام

بين

وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله

ومسؤولية الأمة

تأليف

فضيلة الشيخ

عبد الرزاق فرج الله الأسدي

وحدة الدراسات والنشر

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الإعلام
وحدة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة
ص.ب (٢٣٣)
هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: بين وظيفة الرسول ﷺ ومسؤولية الأمة .
الكاتب: الشيخ عبد الرزاق فرج الله الأسدي.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة / شعبة الاعلام.
التصميم والاخراج الطباعي: علاء سعيد الاسدي.
التدقيق اللغوي: لؤي عبد الرزاق الاسدي.
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق: ٨٦٥ لعام ٢٠٠٨.
المطبعة: دار الضياء - النجف الاشرف ٠٧٨٠١٠٠٠٦٠٣.
الطبعة: الثانية مزيدة ومنقحة.
عدد النسخ: ٢٠٠٠
جمادى الآخرة ١٤٣٣ - أيار ٢٠١٢

ٱلَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ
ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞

الأعراف: ١٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه الأمين وسيد رسله المبعوث رحمة للعالمين محمد وعلى آله الهداة الطيبين الطاهرين.

لا تزال ذكرى المبعث النّبوي الشّريف، تهيمن بجلالها وجمالها على كل الأيام، وترسل أشعتها من قمّة عليائها على طريق الأنام.

فعلى الأمّة الّتي بعث منها وإليها خاتَم الأنبياء رسول الله محمّد ﷺ، أن تقوم بواجب الشّكر والإمتنان لما بذله صاحب هذه الذّكرى من عرق الجهد والجهاد، في سبيل صنع التأريخ الّذي طأطأت له الدّنيا وجميع الخلق خشوعاً وإكباراً.

كما على الأمّة أن تقوم بواجب الوفاء الصّادق لمنهجه وتأريخه وقيمه ورسالته الخالدة، وما على كلّ فرد من أبناء هذه الأمّة، إلا أن يلتزم بما يلي:

أوّلا: أن يكون الإنسان المسلم داعياً لهذا الدّين العظيم بأعماله قبل أقواله، وأن يجسّده في سلوكه وتعايشه مع الآخرين من أبناء أمّته، ومع عامّة الوجودات الإنسانية.

وذلك بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن المعاشرة، ليحقق بهذا الإلتزام صدق الإنتماء إلى خط الرّسالة والرّسول محمّد ﷺ.

ثانيا: أن يهتم بجمع كلمة المسلمين والتقريب بينهم، وتخفيف حدّة الخلاف مهما تعدّدت المذاهب، واختلفت وجهات النّظر أوالمواقف الإجتهاديّة.

وبذلك نقطع الطريق على الأعداء الّذين يتربّصون بنا الدّوائر، ويحاولون إلقاء الفتنة، وزرع بذورالحقد، وإثارة الضغائن بين المسلمين وإشغال بعضهم بالبعض، من أجْل تمرير المخطط البغيض، وليستذكر قول رسول الله ﷺ: «**أنسكُ النّاس نُسكاً أنصحُهم جيباً وأسْلمهم قلباً لجميع المسلمين**»[1].

ثالثا: أن يكون همّه الأكبر رفع كلمة الإسلام والدّعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإطلاع العالم وتعريفهم بمبادئه السّليمة، بعيداً عن التحريف والتشويه، وتعريفهم برموزه العظام الذين جسّدوه في سلوكهم وأخلصوا له التّضحيات.

لأنّ شعوب العالم لم تعد تفهم الإسلام من خلال رجاله ورموزه الحقة الصالحة، بل عادت تفهمه من خلال الشخصيّات الدخيلة على الإسلام، ومن خلال السلوك والتصرّف المتطرّف والمسيء للرّسالة.

لذا أنّ في مقدّمة الرّموز الحقة، التي تجسد الإسلام بأسمى قيمه ومبادئه، هو رسول الله، ومنقذ الإنسانية، وقدوة البشريّة، ورائد الرّسالة الإسلاميّة محمّد ﷺ الذي لمعت سيرته الملتزمة الرائدة الخالدة في سماء التأريخ الإسلامي والإنساني.

هذه السيرة التي ينبغي أن نأخذها من خلال القرآن الكريم، الذي سلط الأضواء على معالمها العطرة الخالدة، فكان القرآن هو الهادي إليه والدليل عليه﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2].

---

(١) الوسائل: ١٦/ ٣٤٠.

(٢) الإسراء: ٩

كما أنّ سيرته هي الهادية إلى القرآن والمرشدة إلى مفاهيمه ومبادئه وأخلاقه، كما ورد عن إحدى نسائه ﷺ عندما سُئِلتْ عنه، فأجابت: «كان خلقه القرآن»[1].

هذه المسؤوليات الثلاث، تستلهم من كلّ ذكرى، ومن كلّ حدث تأريخي في الإسلام، وفي طليعتها ذكرى ميلاد الرّسالة ومبعث النور، وبزوغ الحق والهدى في شخصيّة الرّسول الكريم محمّد ﷺ. لذا يقع الحديث حول هذه المناسبة – انطلاقاً من مقاطع الآية المتقدّمة – في ثلاثة محاور:

المحور الأول: الحاجة إلى الرّسول محمّد ﷺ.

المحور الثاني: وظيفة الرّسول ﷺ في الأمّة.

المحور الثالث: واجب الأمّة تجاه الرّسالة والرّسول ﷺ.

المؤلف

(١) المعجم الأوسط / الطبراني / ج١/ ص٣٠.

المحور الاول

الرّسول صلى الله عليه وآله

ضرورة كونيّة وإنسانيّة

محمّد ﷺ بين الأزل والحدوث

لاشك في أنّ رسول الله محمّداً ﷺ هو محور الرّسالات السماويّة، ومبدأ البركات، وسبب العنايات، ومنبع الرّحمة للإنسانية في كلّ المراحل التأريخيّة، حيث أخذ الله من النبيّين ميثاقهم بالإيمان والتصديق به قبل ميلاده وبعثته، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

لذلك علينا أنْ نستذكر ملامح ومفاهيم تتعلّق بهذا الوجود الأزلي الحادث، ولاضير أنْ يجتمع الأزل والحدوث في شخصيّة رسول الله محمّد ﷺ فيكون لهذه الشخصيّة وجودان:

الأول: وجود في الأزل، وذلك بلحاظ أصل الإرادة الرّبانيّة في التخطيط لهذه الخليقة، فكان لرسول الله ﷺ وجود قائم بقرار إرادة الحق عزّ وجل، وهو الوجود النوراني الّذي تبتني منه شخصيّة محمّد رسول الله ﷺ النّبويّة، ذات الخصائص والمقوّمات القياديّة العالميّة.

لأنّ وجود رسول الله ﷺ لم يكن محدوداً، ولا مقصوراً على مرحلة تأريخيّة معيّنة كما عرفنا، ولا على البشريّة خاصّة، وإنّما هو رشحة من لطف الله عزّ وجل وعناياته،

---

(١) آل عمران: ٨١

وبركته وأنواره، لكلّ الوجود الكوني والبشري، لذلك كان إعداده وخلقه متقدّما على خلق البشريّة وتكوينها.

عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلقني الله نورا تحت العرش قبل أن يخلق آدم بإثني عشر ألف سنة، فلمّا أن خلق الله آدم ألقى النّور في صلب آدم، فأقبل ينتقل ذلك النور من صلب إلى صلب، حتّى افترقنا في صلب عبد المطلب بين عبد الله وأبي طالب، فخلقني ربّي من ذلك النّور لكنّه لا نبيّ بعدي**»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى أحدٌ واحدٌ تفرّد في وحدانيّته، ثمّ تكلّم بكلمة فصارت نوراً، ثمّ خلق من ذلك النّور محمّدا ﷺ**»[٢].

وجاء في الدّعاء: «**أنشأهم في القدم قبل كلّ مذروّ ومبروّ، أنواراً أنطقها بتحميده، وألهمها بشكره وتمجيده، وجعلها الحجج على كلّ معترف له بملكة الرّبوبيّة وسلطان العبوديّة...**»[٣].

الثاني: وجود في التأريخ، وهو الوجود الذي فرضته الحاجة الإنسانية إليه وإلى نظام الحياة الكامل الشامل، فبدأ رسول الله ﷺ هذا الوجود من ولادته إلى مبعثه للبشرية نبيّاً ورسولاً بشيراً ونذيراً وهادياً وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً.

فكان هذا الحدث التأريخي، قد أوجد مسيرة تأريخية خالدة، قادت حركتها رجولة هي صفوة الأصفياء وخلاصة الخلاصات، لم تعهدها الإنسانية في مثلها الأعلى وفي ذاتها النقية قبل رسول الله محمّد ﷺ ولا بعده.

---

(١) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ١٥/ ٦.
(٢) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ٥٣/ ٤٦.
(٣) مصباح الكفعمي ١٩٥.

ألم تـر أنّ الله قـد خـلـد اسْـمـه إذا قال في الخمس المؤذن: أشهدُ
وشــق لــه مــن إســمــه ليجله فـذو الخلق محمود وهـذا محمدُ

وبهذا الوجود بدأ رسول الله ﷺ حركته الطبيعيّة في الوسط الإجتماعي، وهي الحركة التغييريّة الخاضعة لكلّ العوارض البشريّة، متسلحاً بما وهبه الله عزّ وجل من عناصر القوّة، ومؤهلات الكمال من خلال الوجود الأوّل.

حيث واكبت هذه العناصر والمؤهلات عمليّة التّغيير الإجتماعي، وملأت الحاجة الإنسانيّة في كلّ المراحل الزّمنيّة.

وهذا هو السر الذي يتبين من خلاله الفرق بينه وبين من سبقه من الأنبياء، الذين لبثوا في أقوامهم يحملون حركة التغيير لفترات زمنية طويلة.

ومن بينهم النبي نوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يحمل حركة الدعوة إلى الله تعالى، وبالتالي لم يؤمن معه في خضم هذه المعاناة من التنكر والصدود إلا القليل كما أوضح القرآن في هذا العرض.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

في الوقت الذي من حقنا أن نتساءل: كيف استطاع رسول الله ﷺ في خلال ثلاثة

(١) هود: ٣٢ - ٣٧

وعشرين عاماً، أن يغير أمة وشجت أصولها على الأوهام والخرافات والوثنية العمياء، واجتمعت فيها كل سلبيات الأمم التي بعث فيها الأنبياء السابقون وتضاعف فيها الأذى على رسول الله حيث قال «**ما أوذي نبي مثل ما أوذيت**»[١] ويحولها من ماضيها التعيس البئيس إلى خير أمة أخرجت للناس.

وقد أعطت الزهراء عليها السلام في خطبتها الغراء وصفاً دقيقاً لهذا الماضي المظلم:

«**وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الاقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، اذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب [كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله]، أو نجم قرن للشيطان، وفغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا في ذات الله، ومجتهدا في أمر الله، قريبا من رسول الله، سيد أولياء الله، مشمرا ناصحا، مجدا كادحا،...**»[٢].

***

(١) بحار الانوار / للعلامة المجلسي: ج ٣٩ ص٥٦.

(٢) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ٢٩ / ٢٢٤.

حاجتنا إلى الرسول محمد ﷺ

وعندما نعبّر بالحاجة إلى رسول الله ﷺ، فإنّنا نعني بذلك الحاجة إلى الرّسالة والمنهج العادل الذي ينظم لنا شؤون الحياة، لأنّ وجود الرّسالة بالرّسول الذي يبلغها، ويؤدّي مضامينها، ويؤسّس قواعدها في حياة الأمّة، وهي حاجة إنسانية عامّة في كلّ المراحل الزمنيّة وعلى أبعد مديات التأريخ.

لذا علينا أنْ نقارن بين الصّورة المظلمة الكئيبة التي كانت قبل بزوغ فجْر النبوّة الخاتمة لما سبق، وبين الصّورة المضيئة التي رسمها الله تعالى للبشرية كافة في عصر النبوّة الفاتحة المنقذة، إذ كان مولد رسول الله ﷺ وبعثته للحياة، مولداً جديداً للإنسانية، ومشرقا لسعادتها ومجدها وعزتها.

فقد كانت – وستبقى – حياته النبيلة وسيرته الجليلة، هي صفحة ناصعة من نور الفضيلة، ومن الطهر والكمال الذي فرض سلطانه وقوّته على واقع الحياة الفكرية والإجتماعية.

ولكن ممّا يؤسف له اليوم، هو الضعف في نهضة الأمّة وفي بنائها وتلاحمها، وهو يعني: إفتقارها وحاجتها إلى أن تعيش مع بعثة جديدة لهذا المثل، الذي يبدّل فيها اليأس بالأمل، والشك باليقين، ويطهّر وجدانها ويحرّرها من طغيان المطامع الفرديّة، بخلوص القصد وصفاء النية، ويغيّر واقعها وحركتها باتجاه العمل برسالة الله عزّ وجل، ليصنع منها أمّة أراد الله تعالى أنْ تكون خيْر أمّة أخرجت للناس، وذلك:

أنّ بعض المسلمين، قد بلغ بهم اليأس، بحيث أصبح أحدهم لا يفكر بانجلاء غاشية الضّلال التي غشيت المجتمع المسلم إلا بمعجزة من السّماء، كما بلغ بهم الإعتقاد بضعف أنفسهم والإيمان بقوّة الغرب والإمكانات المادية، مع القنوط من الإمكانات الفكريّة والرّوحيّة، التي بمقدور الرّسالة الإسلاميّة أن تمنحها لهم، بشرط أن يتجرّدوا لله تعالى وحده، ويسلكوا الخط الأمثل للإستقامة على هذه الرّسالة.

فهم – إذن – يحتاجون في ضمان استقرارهم وعزّتهم وقوّتهم، وفي تبليغ رسالتهم وحضارتهم للعالم، إلى وسيلة طبيعيّة يألفها ويتجاوب معها المزاج الإنساني، وهذه الوسيلة تتمثل في أمرين:

أولا: في الإيمان بمبادئ هذه الرّسالة، النابع عن القناعة والرّضا، والثقة بقدرتها على إدارة الحياة، وعلى مقارعة كلّ أشكال الباطل والإنحراف.

ثانيا: القدوة الصّالحة التي تصاحب الإنسان، فينظر من خلالها الصّورة الواقعيّة لهذه الرّسالة، بكافة صفاتها وخصالها وقيمها ومفاهيمها وأخلاقها ومواقفها.

***

المثل الأعلى للأسوة الحسنة

الأسوة: هو المثل والقدوة، وهو ما يؤنس إليه ويقتدى به، وينتهج نهجه في العقيدة والقول والعمل، وقد طرح القرآن الكريم للأمة أسوتها وقدوتها في الإيمان، والقوّة، والحركة، والصّبر، والإيثار والتضحية، وهو الرّسول الكريم محمّد ﷺ فقال عزوجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

والعجب أنّ هناك اختلافا في كون الأسوة برسول الله ﷺ واجبة أو مستحبة، فهناك من حملها على الإستحباب حتى يثبت الوجوب، وهناك من حملها على الوجوب حتى يثبت الإستحباب.

وهناك من حملها على الوجوب في أمر الدّين وعلى الإستحباب في أمر الدّنيا.

بينما لا طائل تحت هذا وذاك من الآراء، بعد أنْ يعرف المسلمون أنّ الله عزّ وجل، عندما اختار رسوله المصطفى محمّدا ﷺ لرسالته، وكتب لكلمته القوّة والنفوذ والبقاء والخلود، أمر البشرية بالطاعة له في كلّ ما يأمر به وينهى عنه، وفي كلّ ما يتخلق به من مكارم الأخلاق وجميل الخصال، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[2].

فبما أنّ الله عزّ وجل، أناط برسوله محمّد ﷺ مهمّة التربية والإعداد لأمّة الرّسالة، إعدادا يتناسب مع حجْم المسؤولية التي ألقيت عليها في أداء رسالتها، فلا شك في كون

(١) الأحزاب: ٢١
(٢) الحشر: ٧

التأسي به من المستلزمات الأساسيّة، ومن صميم هذه المسؤولية.

فكان لزاما على الأمة أنْ تتبع كلّ ما لديه وما في شخصيته من نقاط القوة والتأثير، وأن تتعلم دينها أحكاما وأخلاقا ومبادئ عامة للتربية من خلاله ﷺ، لأنه طبيبها الدائم الذي لا يفارقها في كل قضية من قضاياها.

ولنقرأ ما وصفه به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**طبيب دوّار بطبه، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي وألسنة بكم وآذان صم**»(١).

وسئلت إحدى نساء النبي ﷺ عن خلقه فأجابت قائلة – وقيل: سئل أحد الصحابة عنه، فأجاب: «كان خلقه القرآن»(٢)، وهي إجابة تؤكد أنّ رسول الله ﷺ هو ترجمة حيّة لروح القرآن ومبادئه وأخلاقه ومفاهيمه.

ولما كان القرآن الكريم قوّة كونية عظمى تتكامل فيها النواميس والقوى، وتلتقي عندها السّماء والأرض أروع لقاء شهده الكون والحياة، وتتكامل بهداه البشرية، فلا عجب أنْ يكون رسول الله محمد ﷺ قدوة للعالمين وللأمّة في مسيرتها التأريخية الطويلة.

ومن هنا فإنّ على الأمة أن تقرأ في شخصيّة رسول الله ﷺ كل معالم الحق والهداية التي جاء بها القرآن الكريم﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٣).

وإنّ عليها أن تقتبس من نور إنسانيته ومضة تستطيع أنْ تتحرّك بها في خط المسؤولية

---

(١) نهج البلاغة: خ / ١٠٨

(٢) أحديث رمضانية: ١ / ٣٢

(٣) الإسراء:٩

والعمل، و تبدّد بها الظلمات المطبقة على هذه الحياة، وأنْ تتنسم من أنفاسه عبقة تستطيع أن تملأ منها الوجود بالرّحمة والحبّ والسلام.

في الوقت الذي لا يستطيع أحد في الدّنيا أن يعطي هذه الحياة ولو جزءاً يسيراً مما أعطاه رسول الله ﷺ، وهو الوحيد الذي سيبقى يعطي الأمّة الكثير الكثير من إيحاءآت رسالته الفكريّة والرّوحية والإنسانية.

***

دعوى عدم الحاجة إلى الوحي

من الواضح أنّ أيّ إنسان يولد وينشأ، فإنّه يتطلّع بالفطرة إلى معرفة المنهج الّذي يبيّن ماله وما عليه، وما ينجيه وما يرديه، كما يطمح إلى الكثير من المعارف والعلوم.

ولاشك أنّ هناك مصدرين أساسيّين لتوجيه الإنسان باتجاه معرفة هذا المنهج، هما: العقل والرّسول، لاغنى بأحدهما عن الآخر وذلك: لأنّ العقل يستمد جزءاً كبيرا من معارفه وعلومه من خلال الرّسول والرّسالة، كما أنّ الرّسالة تحتاج إلى وعاء يستوعب قواعدها وأحكامها العامّة ومفاهيمها، ويتعقّل ما جاءت به من إطروحة للحياة.

وقد جرت سنة الله تعالى منذ أنْ خلق الإنسان ووهبه العقل وجعله مركز التكليف، أن يرسل إليه الرُّسل والأنبياء، حتى ختم الله تعالى رسالاته برسالة الرّسول الأكرم محمّد ﷺ، فقال عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾.[1]

إلّا أنَّ هناك من الناس من يقضي بإستغناء الإنسان عن الرسول، كالبراهمة، الذين يقضون باستغناء الإنسان بالعقل فقط، لمعرفة منهجه ورسالته في الحياة، ولاحاجة – في رأيهم – إلى الوحي والرّسول، وذلك أن في تصورهم:

أنّ الوحي أو الرّسول، إمّا أنْ يأتي بما يخالف العقل، فهو مرفوض يجب ردّه والإعتماد على العقل، وإمّا أن يأتي بما يوافقه، فهو تحصيل للحاصل، وعلى هذا فلا

(١) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

حاجة إليه لأنَّ العقل يبقى هو الأساس الأوّل في المعرفة، أما الوحي فلم يأتِ بجديد.

ولا يختلف عن هذه النظرية، ما يدور اليوم من قبل الفئات العلمانية، التي ترى عدم الحاجة إلى الدين والمنهج الذي عمل به الرّسول، بحجّة أنّ الدّين جاء في وقت كانت تسود الوثنية والعادات والتقاليد والأوهام، فعالجها الدين في مرحلة من مراحل التأريخ.

واليوم عاد العقل – مضافا إلى ما يملك من المستقلات العقلية التي لا تحتاج إلى تدخل الدّين – عاد قادرا على تحديد سلوك الإنسان وتقنين منهج الحياة الذي يتناسب مع المرحلة التأريخية.

والجواب على هذا الإفراط في إلغاء الوحي، والإعتماد على العقل من قبل البراهمة ومن حذا حذوهم من التيارات العلمانية، يتلخص في عدّة نقاط:

الأولى: - إنَّ العقول تختلف في درجات إدراكها بين شخص وآخر، كما تختلف في وجهات النّظر حول المصالح والمفاسد الّتي تقوم على أساسها الأحكام، فلكلّ عقل وجهة نظره في تحديد المصالح والمضار في الأشياء.

ولذلك هناك من لا يرى قبحا في شرب الخمر، في مقابل من يرى أنّ شرب الخمر قبيح، فإنْ أخذنا بنظريّة الجميع فهو باطل، وإنْ أخذنا بنظريّة طرف معيّن فهو ترجيح بلا مرجّح.

فأنّى للعقل أنْ يدرك ما هو الصّحيح وما هو الخطأ، وهو يختلف في المواقف والرّؤى في كثير من القضايا الإقتصادية والأخلاقية، والأحوال الشخصيّة، وفي الكثير من قضايا العقيدة، بدليل: أنّ بالرّغم ممّا أحْرزه العقل في ميادين الإكتشاف والإبداع والتقنية العلمية، لا يزال هناك الكثير من ذوي المستويات الثقافيّة والشهادات العليا

يتجهون إتجاها وثنيّا، ويستسلمون للأوهام والأباطيل والخرافات.

ثم ما أكثر المـدارس والبرامج المتعارضة في مناهج التربية، وفي رسم الخطة الإقتصاديّة للحياة، مما سبّب الإرتباك أكثر، والتعقيد لمشاكل الأمة بصورة متلاحقة، فمن ذا الذي سيجمع هذا الشتاة المتفرّق، ومن القادر على أنْ يجمع الفكر الإنساني عند خط موحّد للتفكيرغير إرادة السّماء وقدراتها ؟؟.

الثانية: مهما كانت قدرة العقل وإمكاناته في مجال الإبـداع العلمي وفي مجال التقنين، وتقديم الإطروحة تلو الإطروحة، ولكن يبقى الفارق بينه وبين ما يقدّمه الوحي والدّين للبشريّة واضحا، وذلك:

أ – أنّ ما يقدّمه الإنسان من زاوية تفكيره، ووفق نظريّته الخاصّة عن الحلول والعلاجات، يتحدّد دائما بإطار زمنيّ معيّن، ولا ينظر إلى الأبعاد الزمنية الأُخَر للمشكلة، في الوقت الذي تتسع الشريعة السّماويّة لكلّ الأبعاد الزمنيّة.

ب – ومن ناحية أخرى: فإنّ الأطروحات البشرية تتأثر دائما بالأمزجة والأهواء والميول والإتجاهات الذاتية، وتتحدّد بإطار المصالح والأنانيّات الفرديّة، في حين ينظر المشرّع الحكيم إلى المصلحة الإنسانية العامّة، لأنه غنيّ عن كلّ عائد من وراء أيّ مادة تشريعيّة.

الثالثة: لنفترض أنّ العقل استطاع أن يجيب عن الأسئلة التي تتعلق بقضايا الإنسان وعلاقاته الإجتماعيّة العامّة، ولنفترض أنّ الإنسان عرف طرق الحياة الدّنيا، وعرف كيف يبني حياته الإقتصادية وعلاقاته الإجتماعية، فأنى له أن يعرف قضايا المبدأ والمعاد التي تعدّ من أعقد القضايا ومن أشكل المشكلات التي تشغل الفكر الإنساني.

فالإنسان الذي يجهل من أين جاء، ولماذا جاء، وإلى أين ينتهي بعد الخلق، يحتاج إلى

من يدله ويهديه إلى قاعدته الفكرية الصحيحة، وإلا فمصيره الكفر والجحود والتنكر لعالم الآخرة، كما قال فؤاد جرداق في بعض أشعاره:

ضل وهمي ومنطقي وضميري ... في مصيري وخانني تفكيري
أنا من أين جئت أم أين أمضي ... وإلى أين بي يجدُّ مسيري
قال لي العقل بعد فرط اجتهاد ... وجهاد وبعد حزم كبير
قد خلقنا من الأثير جميعا ... وجميعا مصيرنا للأثير

هكذا يعمل الضياع الفكري بصاحبه وينتهي به إلى الإلحاد، ولا أحد يملك الأجوبة الصريحة والجريئة والدقيقة عن هذه الأسئلة غير الوحي والدّين.

وجوابه عن هذا الأمر، ليس جواباً على نحو طرح الإحتمالات العلميّة، وإنما على نحو البناء اليقيني، وإزالة كلّ هواجس الشك والحيرة في هذه الحقيقة.

وبالتالي، فهو جواب يقترن بوضع المنهج الصّالح للحياة، ورسم الخط الذي به يصل الإنسان إلى الله تعالى، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1].

ولا شك في أنّ الطريق إلى الله عزّ وجل، يتمثل في وعي رسالة الحياة التي اختطها الله للإنسان، وأنّ الإنسان لا يصل إلى الله تعالى ولا يلاقيه ما لم يكن على معرفة بكيفية سلوك الطريق إليه.

أما غير ذلك ممّن ليس له اعتقاد بما رسمه الوحي واختطته السّماء فإنه ضائع في ظلام اللانهاية واللاهداية إلى الله عزّ وجل.

الرابعة: - يمكننا أن نسأل القائل بإقصاء الوحي وعدم الحاجة إلى الرّسالة والرّسول، لنقول له: هل أنّ وجود الوحي أو الرّسول مع العقل يتنافى عقلاً، بحيث

(١) - الإنشقاق: ٦ .

يكون إجتماعهما من باب إجتماع الضدّين أوالنقيضين؟ كلا، بل أنّ هناك إيجابيّات في موقف الوحي إلى جانب العقل:

أ – أنّ الوحي بإتفاقه مع العقل في الموقف، يؤكّد صحّة وسلامة حكم العقل، ويعزّز من مكانته وموقعه في هذا الميدان.

ب – أنّ الوحي هو الّذي يرسم للإنسان معالم الطّريق، في حين أنّ العقل هو المصباح الكاشف عن هذه المعالم، وعن محاسن أو مساوئ هذا السّلوك أو ذاك.

ج – أنّ الوحي يحفّز الإنسان على سلوك هذه المعالم، ويشعره بمسؤوليّته.

وبذلك يسدّ الوحي فراغا لا يسدّه العقل، لأنّ رسالة الإنسان في الحياة تتكوّن من نظريّة وسلوك.

فالنظريّة يمكن أنْ يقرّرها ويكشف عن واقعها العقل وحده، أما السلوك، فإنّه يحتاج إلى باعث ومحفّز نحو الخيْر والفضيلة، وهو ما يوفّره الوحي من بيان يتضمّن حوافز نحو اكتساب الثواب، ويتضمّن كذلك روادع عن كلّ ما يستوجب العقاب.

أمّا العقل، فليس من شأنه أن يدفع ويحرّك باتجاه ما ينبغي عمله أو تركه.

الخامسة: – لمّا كان العقل هو العقل قبل الرّسالة، وقبل بعثة الرّسول محمّد ﷺ، فلماذا لمْ يتقدّم به العرب قبل الإسلام من رعاة إلى ساسة، ومن جاهلين إلى عالمين والى بناة حضارة؟.

ولماذا لم يتقدّم به العرب وغيرهم في مجال رسم المناهج التربويّة والأخلاقيّة للمجتمعات التي لم يكن يحكمها ضابط قانوني أو إنساني واحد؟.

وهل أنّ التقدّم الّذي حصل في المراحل التأريخيّة المتأخّرة لحياة الأمّة على مستوى

الإحساس والشّعور بالمسؤوليّة تجاه الإنسانيّة كان بمحض العقل، أم بفضل الرسول الذي حضي بكلّ المقوّمات القياديّة، واجتمعت فيه عناصر الشخصيّة الرّسالية الرائدة؟.

***

عناصر القوة في شخصية الرسول ﷺ

بما أنّ شخصيّة رسول الله ﷺ هي الشخصيّة المصطفاة لعمليّة تغييريّة شاملة وشاقة، فقد برأها الله عزّ وجل ونقاها من كلّ نقص،وصانها من كلّ عيب، ووهبها عناصر القوّة،لمواجهة العقبات، وعلاج السلبيات، وتحدي مواقف الرفض الجاهلي، وأهم ما في هذه العناصر هي:

أولا - إيمانه قبل البعثة

فليس هناك أدنى شك لدى كتاب التأريخ والسيرة، ولدى عامة المسلمين، في أنه ﷺ كان مؤمناً موحداً نقي الفكر والسلوك، يتحرّك منذ طفولته بكلّ كيانه ومشاعره، باتجاه عبادة الله عزّ وجل.

فقد نقل المجلسي في البحار، أنّ النبيّ ﷺ كان عمره ثلاث سنوات فسأل مرضعته حليمة السعدية قائلاً: «**أمّاه مالي لا أرى أخويّ بالنهار**»؟ قالت له: يا بني إنهما يرعيان غنيمات لهما.

قال: «**ما لي لا أخرج معهما**»؟ قالت: أتحب ذلك؟ قال: «**نعم**»، فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطا فيه جزع يماني، فنزعه فقال لأمّه: «**مهلا يا أمّاه فإنّ معي من يحفظني**»[1].

إلا أنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هو: على أيّ دين أو ملة كان يتعبّد النبي

(١) بحار الأنوار / العلامة المجلسي: ١٥ / ٣٩٢

آنذاك؟، لذا انحصرت الإحتمالات في المنهج الذي كان يتعبّد على أساسه قبل البعثة في أربعة احتمالات:

أ – أنه كان يتعبّد على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولكن ما ورد من الإشكال على ذلك: كيف يتعبّد على شريعة منسوخة بشريعتين لاحقتين هما: شريعة موسى وعيسى عليهما السلام؟.

إلا أنّ ما يخفف من وطأة هذا الإشكال هو: أنّ أكثر عناصر تلك الشريعة، قد بقيت مشتركة بينها وبين الشرائع اللاحقة، بل إلى زمن الإسلام، فيعتبر عمل النبي وتعبّده قبل النبوة قائما على شريعة تلتقي في كثير من عناصرها مع شريعته الموعودة، وتتسم بالحنيفية التوحيدية بنص القرآن الكريم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[1].

غاية الأمر يرى البعض: أنّ الإتفاق قائم على أنّ النبي ﷺ هو أفضل الأنبياء بلا إستثناء، لذا فإنّ إتباعه لمن قبله من الأنبياء يلزم منه اقتداء الفاضل بالمفضول، وهو مرفوض في المقاييس العقلية والشرعية.

ولكن ينبغي القول: أنّ إقتداء النبي بالنبي الذي قبله شيء، واتباع الشريعة بما هي شريعة سماوية شيء آخر، لذا فكل الأنبياء يشتركون في كثير من المواد التشريعية التي استندت إلى الله عزّ وجل، فلا يتحقق اقتداء الأفضل بالمفضول إلّا فيما يقرر، وفيما يسن بنفسه من سنن وإلتزامات.

ب – أنْ يكون قد تعبّد على شريعة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهذا الإحتمال – قطعا – لا موقع له من القبول.

وذلك: لأنه يلزم منه كون أمر النبي ﷺ متوقفاً على هذه الشريعة، وأنه لابدّ له من التّماس والتعامل مع أهل الكتاب وعلمائهم والإستفادة منهم، وهو ممّا يساهم في

(١) الحج: ٧٨.

تأكيد الشبهة القائلة: بعدم أصالة الرّسالة التي بعث بها رسول الله ﷺ.

ج – أنه كان يتعبّد وفقا لما يمليه عليه عقله، دونما اعتماد على أي توجيه شرعي آخر.

وهذا الإحتمال إنما يجري فيما إذا كانت الإلتزامات التي يتعبّد بها النبي ﷺ في نطاق الإلتزامات الفطرية المشتركة، والمتبانى عليها كمسلّمات ومستقلات عقلية بين كل الفصائل الإنسانية،والتي لا تحتاج إلى توجيه من أيّ مصدر تشريعي، كالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصدق الوعد، وغيرها من المبادئ التي لم يختلف فيها اثنان بين كافة الملل والمجتمعات.

أما النشاطات والمُمارسات التي تخضع لرأي المشرّع، مثل الكثير من العبادات والمعاملات، كالبيع، والشراء، والأطعمة، والنكاح، وغيرها من النشاطات.

فقد ثبت أنّ النبي ﷺ قد مارسها وفق منهج خاص ومنظم، لم يرتكب فيه أي محرّم، كما روي عن أهل البيت عليهم السلام أن النبي قد حج عشرين حجة مستترا[1].

د – وهو الإحتمال الأقرب إلى الواقع الرسالي للنبي ﷺ الذي يؤيّد أنه كان يوحى إليه من قبل الله تعالى، بواسطة ملك عظيم من ملائكته، يعلمه ويلهمه طريقة العبادة والطاعة مستقلا عن كافة الشرائع، بغض النظر عن كون هذه النشاطات مطابقة للشرائع السابقة أو مخالفة لها.

وقد أشار إلى ذلك الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال: «**ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً فأراه**

(١) ينظر الوسائل:٩ / ١٨٣.

ولا يراه غيري»[١].

وهذا ما يفسر لنا ما هو المراد من الضلالة التي خوطب بها النبي ﷺ بقوله تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[٢].

إذ ليس معنى ذلك أن النبي ﷺ كان في فترة من فترات حياته على خط مقرر له ثم ضل عن سلوك هذا الخط، مضطرباً في عقيدته، أومنحرفاً في سلوكه، ثم هداه الله عزّ وجل، أي: أخذ بيده إلى معالم الرسالة الجديدة التي بعث بها،لأنّ هذا المعنى من الضلالة لا يليق إلا بالكفار والمنافقين.

بل إنّ معنى الضلالة هو: الفراغ الذي كان يعيشه النبي ﷺ في الفترة التي ما بعد نبوة عيسى عليه السلام كما أنّ كلّ موجود من الخلق فاقد للمعرفة بمعالم الطريق،هو ضال لولا هداية الله عزّ وجل﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[٣]﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[٤].

أي: غرس في كلّ شيء إستعدادا للهداية نحو معرفته تعالى والإنقياد لطاعته، والإنسان من ضمن المخلوقات التي غرس الله تعالى فيها هذا الإستعداد للتقبل،وتجلى هذا الإستعداد بصورة أوضح، وأكثر فاعلية لدى رسول الله ﷺ وفي كافة مراحل عمره الشريف، من أجل التصدّي لأداء مسؤولية الرّسالة الجديدة.

***

(١) نهج البلاغة – محمد عبده – خ / ١٨٧.
(٢) الضحى: ٧.
(٣) طه: ٥.
(٤) الأعلى: ٣.

ثانيا: أميّة الرسول ﷺ

حيث عبرت الآية الكريمة عن الخاصية الثالثة لرسول الله ﷺ فأسمته (الأمّي)، وهنا من حق كلِّ أحد أنْ يسألْ: ما ذا تعني أمّيّة الرّسول ﷺ؟ وكيف تعتبر من عناصر القوّة في حركة الرسالة فقد ذكرت في ذلك آراء عديدة أهمها:

١ – الأمّي: الّذي لا يكتب ولا يقرأ.

٢ – الأمّي: المنسوب إلى الأمّة، أيْ: أمّة العرب قبل أن تحسن القراءة والكتابة.

٣ – الأمّي: المنسوب إلى أمّهِ، أي كما ولدته أمُّهُ قبل أن يتعلم القراءة والكتابة.

٤ – الأمّي: هو المنسوب إلى أمّ القرى، وهي مكّة المكرّمة.

والملاحظ أنّ الرأي الأخير، هو الّذي يعوّل عليه لدى جملة من مفسري الإمامية استناداً إلى نصوص المعصومين عليهم السلام.

بينما المرجح لدى مشهور المفسرين هو الرأي الأول، لأنّ أميّة الرسول ﷺ جاءت في مقام الإفحام والحجّة على الذين ينكرون وحي السماء، أو يشككون بما جاء به النبي ﷺ من الكتاب الكريم.

أما ماورد عن المعصومين عليهم السلام فإنه يؤكد على أنّ النبي الأمي: كونه المنسوب لأم القرى مكة المكرمة.

جاء عن عليّ بن أسباط – أو ساباط – قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: لم سمّيَ النبي الأمّي؟ قال: «**نسبةً إلى مكّة، وذلك من قول الله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأمّ القرى هي مكّة**».[1]

(١) تفسير العياشي: ٢/ ٣٦.

وعن جعفر بن محمّد الصّوفي، قال: سألت أبا جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام، قلت: يا ابن رسول الله، لم سمّي رسول الله ﷺ ب (الأمّي)؟.

فقال: «**ما يقول الناس**»؟

قلت: جُعلتُ فداك، يقولون: إنما سمّي الأمّي لأنّه لم يكن يكتب.

فقال عليه السلام: «**كذبواعليهم لعنة الله، أنىّ ذلك ويقول الله عزّ وجل في كتابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، فكيف كان يعلمّهم ما لا يُحسن؟**.

والله لقد كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو ثلاثة وسبعين لساناً، وإنما سمّي الأمّي لأنّه من أهل مكّة، ومكّة من أمّهات القرى، وذلك قول الله في كتابه: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾»[1].

ويمكن القول: بأنّ الأمّية المرفوضة في نصوص المعصومين عليهم السلام، هي الأميّة الملازمة له كما يتصوّرها النّاس، وهي أميّة العقل والفكر.

أمّا الأميّة التي تعني أنه لم يتعلم مِن بشر، ولم يسبق له أن درس على يد أحدٍ من أهل مكّة ولا من غيرها، وهذا مما لا شك فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

لذا فإنّ أميّته هذه، كانت تشكل عامل قوة له في حركته، وهي من أصدع الأدلة وأقواها على صحّة دعوى النبوة، ومِنْ أصدق الحجج على كون القرآن الكريم الذي أنزل معه هو من عند الله عزّ وجل.

---

(١) الإختصاص / ٢٦٣.

(٢) النحل: ١٠٣.

لذلك قال الله تعالى في موضع الإحتجاج على المنكرين والمشككين في صدق دعوى النبوة:﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[2].

فتكون النّصوص الشّريفة قد ركّزت على كون رسول الله ﷺ كان عارفاً بالقراءة والكتابة بتعليم الله عزّ وجل له لا بتعليم أحد من البشر، ممّا يعصم مقام النبّوة ويؤيّد صدقها.

ولعل التعبير في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾إشارة إلى جوهر هذا التعليم، وذلك لأنّ مِنَ الطبيعي أنّ شخص النبي ﷺ لم ينزل من السماء.

بل أنّ الّذي نزل من السّماء هو النبوّة والرّسالة المؤيّدة بمعجزة القرآن الكريم، وبحكم الملازمة فإنّ النّبوّة مقرونةٌ بتعليم الله عزّ وجل لرسولهِ القراءةَ لفهم الكتاب الكريم وتعليمه للأمّة.

ومن الجدير بالذكر، أنّ التعليم يعتمد على ركنين هما: المعلم والكتاب، فلا الكتاب يغني عن المعلم، ولا المعلم يغني عن الكتاب شيئا.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا**»[3]، وقال ﷺ: «**إنّي مخلّف فيكم الثّقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى**

(١) يونس: ١٦

(٢) العنكبوت: ٤٨.

(٣) العلم والحكمة في الكتاب والسنة: محمد الريشهري/ ص٢٢١.

يردا عليّ الحوض»[1].

وحتى الآن لازلنا بحاجة إلى فقيه، ومن يدّعي أننا في غنى عن الفقيه، وأننا نستطيع الإكتفاء بالرّسالة العملية فهو مخطئ، كما كان واهماً من يقول: حسبنا كتاب الله، سواء في زمن رسول الله ﷺ أو في زماننا هذا.

فالرّسول ﷺ، والعترة الطاهرة عليهم السلام والعلماء الذين هم الإمتداد لهم، يقومون بتعليم أمرين: هما الكتاب والحكمة.

أما الكتاب فهو: منهل الشريعة والأحكام والقوانين والضوابط. وأمّا الحكمة فهي: منهل الأسلوب وكيفيّة التعامل وطرق التصرّف العام على كافة الصعد.

ثالثا: شهادة الكتب السّماويّة

بالرغم مما أصاب الكتب السماوية السابقة من التلاعب والتحريف، فقد بقيت تحتفظ بالنصوص التي تشير إلى رائد الرسالة النبي الخاتم ﷺ، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2].

ولا شك في أنّ ظهور رسول الله ﷺ في أبرز الكتب السماوية قبل القرآن كالتوراة والإنجيل، هي شهادة تمنح شخصية الرسول ﷺ عاملاً مهماً من عوامل القوة والتأييد من ناحية.

ومن ناحية أخرى: تدل على دقة التدبير والتخطيط الرّباني لرسالة رسول الله محمّد ﷺ، وعلى عالميّة هذه الرّسالة لكونها الخاتمة لكل الرّسالات والشّرائع، والمستكملة لكلّ عناصر التشريع الذي تحتاج إليه الأمّة على امتداد وجودها.

---

(١) الإفصاح: ١ / ١٢٨

(٢) الشعراء: ١٩٦-١٩٧

جاء في المجالس، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «**قال يهودي لرسول الله ﷺ: إنّي قرأت نعتك في التّوراة محمّد بن عبد الله ﷺ مولده بمكّة، ومهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب ولا مترنّن بالفحش، ولا بقول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله، هذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله**»[1]

وأنّ موسى عليه السلام ناجاه ربّه تعالى، فقال في مناجاته: «**أوصيك ياموسى وصيّة الشفيق المشفق، بابن البتول عيسى بن مريم، ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيّب الطاهر المطهّر، فمثله في كتابك أنّه مهيمن على الكتب كلّها، وأنّه راكع ساجد راغب راهب، إخوانه المساكين وأنصاره قوم آخرون ...**»[2].

وجاء في سفر التكوين (الإصحاح ١٧ العبارة ١٧-٢٠): «وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه - إشارة إلى دعاء إبراهيم لولده إسماعيل- واستجابة الله دعاءه في حقه، إلى أن قال: ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جيّدا إثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمّة كبيرة...».

وفي إنجيل يوحنّا (الباب ١٥ العبارة ١٦) قال: «وأما المعزي الّروح القدس الّذي سيرسله الأب بإسمي فهو يعلّمكم كلّ شيء ويذكّركم بكلّ ما قلته لكم».

وفي إنجيل يوحنا (الباب ١٥ العبارة ١٤) قال: «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني».

وقال أيضا: «ومتى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من

---

(١) تفسير الصافي ٢/ ٢٤٢.

(٢) نفس المصدر/ ٢٤٣.

نفسه بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية».

ففي تلك النصوص التوراتية والإنجيلية، دلالة على أنّ الآتي هو النبي المصدق بما جاء به من قبله من الأنبياء والمرسلين، والمؤمن والداعي إلى التصديق بالكتب السماوية السابقة، لا في حدود ما حملته من نبأ بعثته، بل في كلّ ما جاءت به من تشريع وأحكام، كما أنه المخبر بما لم يقع من الحوادث والوقائع.

رابعاً: عناية الإعجاز الرباني

وليس المراد هنا عرض تفصيل لأنواع الإعجاز الرباني لإثبات صدق النبوة، بقدر ماهو عرض لخواص الإعجاز بنحو عام، وأنه يمثل مصدر قوة لمواقف الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، ثم الفرق بين الإعجاز وبين ما قد يقع فيه البعض.

ولعل من مصاديق عدل الله عزّ وجل هو: تقوية مواقف الرسل بعناية الإعجاز الدالة على صدقهم، لأنهم الهداة للناس، والله عزّ وجل لا يمكّن بالإعجاز إلا من هو صادق في قوله وفعله.

فالإعجاز هو العمل الخارق للعادة، والقائم على صدق دعوى المنصب الإلهي، والذي يعجز البشر عن الإتيان به ولو بمثله، وهو مما تعجز أمامه كافة الإرادات البشرية مهما كانت قدراتها وإمكاناتها، ولا يمكن الصمود أمامه لأي من مواقف الرفض.

لأن الإعجاز يتحرك دائما في خط التحدي ضد المنكرين للمنصب الإلهي، وذلك لأن المتبني لإجراء هذا العمل الخارق للعادة هو الله عزّ وجل.

وإذا رجعنا إلى القاعدة الفكرية التي نمتلكها وهي (عقيدتنا) التي تقضي بأن الله تعالى يصب قراراته وأفعاله وفق الحكمة، ومع مقتضيات مصلحة الدين والرسالة.

فبهذا الحصر نستوحي أن المعجزة دائما تصب في خط الحكمة، ولا تجري عبثا وبلا

مصلحة تقضي بإجرائها، لذلك تكون المعجزة لإثبات المنصب الإلهي على نوعين:

الأول: من المعجزات ما يلازم البعثات الرّسالية، ولم يكن مرتبطا بما لو طلب الناس ذلك أو لم يطلبوا، فتأتي المعجزة ملائمة لأرقى فنون العصر الذي يبعث فيه النبي، دون أن يكلف الله النبي المرسل بأكثر من دعوة الناس إلى الإيمان بالرّسالة التي جاء بها من ربّه تعالى، وهو ما عليه مسيرة كل الرسالات التي بعث بها الأنبياء.

الثاني: من المعاجز ما يطلبه الناس من النبي، فلو أجابهم الله عزّ وجل ولم يؤمنوا بذلك يصيبهم الله بعذاب من عنده، كما أنبأنا القرآن الكريم في الكثير من الآيات التي كانت سببا لهلاك الأمم التي كانت تلح على طلبها من أنبيائها، ولم تؤمن بها فيعاجلها الله بإنزال العذاب.

لذا أغلق الله باب الإستجابة لطلب المعجزات التي يستوجب التكذيب بها إنزال العذاب، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[1].

وذلك إكراما لنبي الرّحمة رسول الله ﷺ فأوكل الله الناس إلى عقولهم للتدبر في أرقى المعجزات، وهي معجزة (القرآن الكريم) وذلك: أن هناك شروطا تشكل مجتمعة، الميزان والضابط للمعجزة ومن هذه الشروط:

١- أن تكون المعجزة مقترنة بدعوى المنصب الإلهي لدى من هو أهل لهذا المنصب، وفي ظرف الإمكان لإدعائه، لذا لايحق لأحد أن يدعي منصبا من مناصب النبوة في هذا الزمان، لقول النبي ﷺ: «**إلا أنه لانبي بعدي**»، ولا منصبا من مناصب الإمامة، لعدم الإستحقاق الموضوعي لهذا المدعى بعد وضوح سلسلة الإمامة .

٢- أن لاتكون المعجزة على خلاف السنة الكونية أو أمرا مهلكا أو مستحيلا عقلا

(١) - الإسراء: ٥٩ .

كما طلبت قريش من رسول الله ﷺ ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾[1].

فنلاحظ في هذا الطلب ما يخالف السنة الكونية، ومنه الأمور المهلكة التي تخالف الهدف من بعثة النبي ﷺ، ومنه ماهو مستحيل عقلاً، ولذا لاتجد مثل هذه الطلبات قبولا عند الله عزّ وجل.

٣- أن لا تكون المعجزة من الأمور الملجئة للناس على الإيمان، بمعنى أنها تسلب الإختيار، لذا لما كبر على النبي ﷺ إعراض الناس عن الإيمان بالرّسالة، ووقع في نفسه الألم والحسرة عليهم إذ لم يؤمنوا، خاطبه الله تعالى بقوله:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2].

٤- أن لاتتجرد المعجزة عن الغاية والهدف، كما لو كانت استجابة للجاجة أوعناد من الناس، وهم غير مستعدين للإيمان والإنضواء تحت لواء الهدى والحق.

لأنّ هدف المعاجز في تأريخ الرسالات، هو: ربط الناس بالله تعالى من ناحية، ومن ناحية اخرى إقامة الحجة على الكافرين والمعاندين.

وهذه الغاية تحصل من أول معجزة تقوم على صدق المدّعى، كما في خاتم المعجزات القرآن الكريم، القائم على صدق الرسالة، والذي أغلق الله عزوجل به باب كل طلب، وأفحم به كافة المدّعيات، وما يتوقع من ظهور الأوهام.

---

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٢ .

(٢) الأنعام: ٣٥ .

مجتمعنا وثقافة الوهم

ويفترض بنا على ضوء الضوابط المذكورة للمعجزة، أن نتفادى الظواهر التي سرت في واقعنا الإجتماعي، مثل ظاهرة الخلط بين مفهوم المعجزة وبين الوهم الذي أصبح ثقافة يتبناها البعض من الناس، لأنّ الثقافة في واقعنا الإجتماعي – مع شديد الأسف – غير خاضعة لمقاييس الدين والعقيدة.

إنّ مما يساوي الغزو العسكري في الخطورة، هو غزو الأوهام والخرافات التي تتحرك على أرضية الجهل واللاوعي في الوسط الإجتماعي، ولعل هذا من أخطر الحالات على الأمة.

لأنّ الغزو العسكري يتربص بالأمة من خارج حدودها، فيمكن للأمة أن تتظافر جهودها وإمكاناتها التعبوية لتفادي مثل هذا الغزو.

أما هذه فتسري في شرايين الأمة وتتلاعب بفكرها وثقافتها، وتعبر عن حالة الجهل والتخلف، وعدم الإستناد إلى قاعدة علمية لعملية القبول أو الرفض.

إنّ الدور الذي تلعبه الأوهام والخرافات، هو تخريف العقل، وتحريف المفاهيم والأفكار والمبادئ الأولية للإنسان المسلم، حتى على مستوى الإنسان المثقف فضلا عن الإنسان العادي.

لأنّ الثقافة وحدها لاتؤدي ما يؤدّيه العلم والإيمان والوعي من دور في الهداية والتوجيه، ولا توفر ما يوفره العلم والإيمان من الحصانة للعقول والأفهام عن تأثير

الخرافات والأوهام.

فقد اختلطت لدى مجتمعنا الأوهام بالمعاجز والكرامات، وأخذت جزءا من تفكيره، وابتنت عليها حركته ومواقفه ونشاطاته، وذلك لفقدانه الميزان الذي يعرف من خلاله الفرق بين المعجزة والكرامة من ناحية، وبين الكرامة والوهم من ناحية أخرى، فعلينا أن نفهم:

١- أنّ ما يدّعى من المعجزات لهذا الشخص أو ذاك، لا ينسجم مع شروط وخصائص المعجزة كما قرّرها القرآن الكريم، وذلك للفرق بين المعجزة وغيرها من تلكم المدعيات:

أ - أنّ المعجزة لا تستند إلى طريقة تعليمية، بينما تتم الأعمال الأُخَر على أساس سلسلة من التعليمات والممارسات والتمرينات على الفنون الخاصّة بها عند أصحابها.

ب - أن المعجزة لاتتحدّد في نوع واحد من الأعمال الخارقة للعادة، وإنما تتعدّد الخوارق في المعجزة الواحدة، كما حدثنا القرآن الكريم عن جوانب عديد في معجزة موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء، في حين يختص عمل ذوي الأوهام بباب واحد من أبواب الخرق لا يستطيعون تجاوزه إلى غيره.

ج - أنّ المعجزة لا يمكن معارضتها وتفنيدها بأيّ عمل من الأعمال الأُخَر، لأنها تستند إلى القدرة الرّبانية الخارقة، ولم نسمع أنّ معجزة من معاجز الأنبياء تم تفنيدها في يوم من الأيام، في حين يمكن تفنيد دعاوى ذوي الأوهام بأدنى بادرة من بوادر الرجوع إلى القواعد العلمية.

د - أنّ الأهداف والغايات التي يسعى إليها أصحاب المعجزات الإلهية، هي أهداف وغايات إنسانية نبيلة، تسعى إلى بيان وإيضاح معالم طريق الهداية إلى الله عزّ

وجل، في حين لا تجد لدى ذوي الأوهام والخرافات من وراء تلك الدعاوى إلا مآرب دنيوية وجاهية.

إذن لم يعد ما نسمعه من الدّعاوى المتأخرة سوى هوس من الأفكار والتصوّرات التي قد تتبناها جهات وحركات من أجل مآرب دنيويّة، فتستغل حالة الجهل والفراغ الفكري والعقائدي في الأمة.

ولذا أذكّر بما ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: (إذا قام قائمنا عليه السلام وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت أحلامهم)[1]، مما يدل على شيوع الفتن وانتشار الأوهام التي تأخذ بالعقول والأفهام، ووضع اليد كناية عن بسط السلطة التامة التي يهيّء بها الإمام عليه السلام وسائل العلم ويمهد السبيل إليه.

٢- علينا أن نعلم: كما أنّ للمعجزات ميزانا وضابطا، فإنّ للكرامات - أيضا - ميزانا تتحرّك على أساسه، لكي لا يقول أحد: أني لم أدع منصبا من المناصب الإلهية، فيتمسك بدعوى الكرامة التي لا تعدو كونها كذبا من الأكاذيب التي يتبناها بعض الناس.

ولكن ينبغي أن نعرف: أنّ الكرامة إنما تجري على أيدي المؤمنين من الناس لمقتضيات التكريم من الله عزّ وجل، فإذا ما كان المؤمن من أهل الله، ومن أهل التقى والورع والدين، فيجري على يده العمل الخارق للعادة تكريما له.

وقد حدثنا القرآن عن نزول المائدة على السيدة مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[2].

(١) مستدرك سفينة البحار: ١ / ٢١٩

(٢) آل عمران: ٣٧

وكما حدثنا عن شأن (آصف بن برخيا) أحد أنصار النبي سليمان عليه السلام الذي تولى نقل عرش بلقيس في مقابل دعوى ساحر الجن: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1].

وأيضا من الموارد التي تجري بها الكرامة على أيدي الصالحين، تجري في إحدى حالتين:

أ- أن يكون مغمور الحق مسحوق الكرامة، يتعرض للإزدراء والسخرية والإستهانة، فيأبى الله تعالى أن يدع الناس يستصغرون قدره، فيرزقه كرامة الدنيا والآخرة، وهذا ما يمكن أن يظهره الله للسادة والعلويين أحياءا وأمواتا.

بل حتى لسائر المؤمنين دونما دعوى منهم أو ضجيج أو عجيج، لذا جاء في الحديث «**وأخفى وليه في عباده فلا تستصغرن عبدا من عبيدالله فربما يكون وليه وأنت لاتعلم**»[2].

ب- أن يكون من أهل التوبة والإنابة الصادقة والخالصة لوجه الله عزّ وجل، كما يروى أنّ رجلا في بني إسرائيل كان يتزيا بزي النساء، ويدخل حمام النساء بصفة امرأة تتولى تدليك النساء، وبقي على هذا الحال فترة من الزمن.

وفي يوم من الأيام دخلت ابنة ملك من الملوك إلى الحمام، فلما خرجت وجدت عقدها الثمين قد سرق، وعلى أثر ذلك تم تطويق الحمام للتفتيش، وسدت كافة الأبواب، فاختبأ الرجل في زاوية خفية وهو يرتجف خوفا، فنذر لله تعالى نذرا لئن أنجاه من هذه المشكلة ليتوبن له توبة نصوحا.

---

(١) النمل: ٤٠

(٢) بحار الأنوار: ٦٦ / ٢٧٥.

وانتهى التفتيش ولم يعثر على الرجل، فخرج تائبا لله تعالى، وهام في الصحراء نادما، وبقي يتعبد حتى نحل جسمه وخارت قواه، وهو لايجد ما يأكله غير حشائش الأرض، فرأى معزى تقترب منه فعدى نحوها وأمسكها فدرت عليه من لبنها فشرب، فكان أهل ذلك البلد كلما مرض لديهم أحد، جاءوا إليه بالمريض فيسقيه من ذلك اللبن فيشفى بإذن الله تعالى.

***

خامسا: وعي الرسول ﷺ للمسؤولية

من عناصر نجاح حركة الرسول ﷺ، أنه كان قد أحاط بكل خطوط رسالته التي حملها للأمّة، وكان على وعي وبصيرة لما يدعو إليه من مبادئ هذه الرسالة ومفاهيمها، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ومن الطبيعي أن أيّا من الحركيين المصلحين، بصفته صاحب إطروحة يريد أن يضعها بين يدي الناس، بهدف أن يكون لها النفوذ والقبول في واقع الأمة، لابد وأن يكون عالماً ومستوعباً لتفاصيل هذه الأطروحة، مما يعزز من مواقفه، ويضاعف من تحمله لمسؤوليته في سبيل ترويجها، فكيف برسول الله ﷺ الذي هو على موعد من السماء أن تلقي عليه قولا ثقيلا، وأن تحمله أمانة عالمية شاملة ؟؟.

فلم تعد تلك الأطروحة لدى الرسول ﷺ كمهنة من المهن التي يزاولها عادي الناس انتظارا لعائد مادي، أو أملا لمردود جاهي، أو طمعا في مركز إجتماعي.

وإنما كانت لديه الأطروحة هذه طموحا من الطموحات، وتطلعا من التطلعات

(١) - يوسف: ١٠٨ .

وهدفا من الأهداف والغايات، التي يعيش تأثيرها في نفسه وروحه وعقله مذ فتح عينه على الدنيا، والتي تصاغرت وتفانت أمامها كل الرغبات المادية والدنيوية.

لذا كان وعيه وشعوره بالمسؤولية تجاهها، دافعا من دوافع الإصرار والتصميم على مواصلة الطريق إليها، فكان يقول لعمه أبي طالب عليه السلام: «**لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري ما أردته، و لكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب، ويدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكا في الجنة**»[1] إيمانا منه بأنّ هذه الأطروحة الجديدة هي موضع أمل كل الإنسانية على امتداد التأريخ.

لذلك لما كانت هذه الأطروحة تطلعا في كل أحاسيسه ومشاعره، فقد بقي يراقب ويتابع درجة تأثيرها في عمق النفوس، وفي مظاهر السلوك الإنساني.

***

سادسا: سيرته العملية الملتزمة

وهي تعني إلتزامه بمقررات رسالته التي يدعو إليها، والعمل بمبادئها وتطبيق مفاهيمها في واقع التعامل والسلوك، لترى الأمة صورة الرسالة الجديدة قد تمثلت في صورة رسولها الداعية إلى الإيمان بها، وتشتمل السيرة العملية على مصاديق منها:

أ – أخلاقه الرسالية: فقد استلهم رسول الله ﷺ من رسالته جل صفاته وخصاله وقيمه الأخلاقية، لذا لم يتحدث القرآن عن صفاته الجسدية كطول القامة أو قصرها، أو لون العين، أو لون الشعر، لأنّ القرآن ليس صحيفة من الصحف الإعلامية والدعائية حتى تهتم بالمظاهر، وإنما هو كتاب تربية وتغيير.

لذلك يتحدث عن عمق تلك الشخصيّة الرسالية، وعن روحها وصفاتها وخصالها

(١) بحار الأنوار/ العلامة المجلسي: ج١٨ ص١٨٢.

وأخلاقها، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٣].

وهذا إيحاء لنا عندما نتناول حياة الأنبياء والعظماء، والقادة في منهجنا التربوي والتغييري، أن لا نشغل أنفسنا في صفاتهم الجسديّة، ولا في خصوصيّاتهم وعلاقاتهم العائلية، إلا بما يتصل بحركة الرّسالة وحركة الناس معهم في المنهج.

ب – الصبر على الأذى: فكلما كانت الغاية والهدف أثمن، كان الطريق إليها أعقد، يحتاج إلى صبر أطول، لذا لما كان هدف النبي ﷺ أن يؤسس إنسانية ويبني مجتمعا إنسانيا. ولا يكون المجتمع إنسانيا مالم يتصف بالحلم والأناة والصبر وسعة الصدر، لذلك لم يجمّد إنسانيته في التعامل مع الواقع بصبر وأناة، فكانت إنسانيته تتحرك كالشمس فوق كل بر وفاجر، وفوق كل محسن ومسيء له.

في وقت كان السيد المسيح عيسى بن مريم يقول: «**كن كالشمس تطلع على البر والفاجر**»[٤]، وكان رسول الله ﷺ يواجه صور الأذى والألم، الذي يكيله جهلة قريش ومشركوها، كان يواجهه بشعاره الإنساني المعروف «**اللهم اغفر لقومي إنهم لا**

(١) القلم: ٤
(٢) التوبة: ١٢٨
(٣) آل عمران: ١٥٩
(٤) – بحار الأنوار: ٩٥ / ١٦٧.

يعلمون»[١]، فإنه ينطلق بهذه المناجاة إلى الله عزوجل من منطلقين:

١- من منطلق رحمته ورأفته بالأمّة، فإنه يحب أن يراها مغفورا لها، ولا يحب لها العنت والعذاب والأذى كما عرفنا من رقة طبعه وسعة صدره.

٢- من منطلق علمه بأنّ شرك هؤلاء ليس من خلال علمهم المضاد، بل من خلال الجهل الذي يفتقد عنصر العلم والوعي.

ج - الوفاء والصدق في القول والعمل: وهو دليل قوة الشخصية وتوازنها، وهو ما يقتضيه منهج التربية الإسلامية، الذي يصب دائما في إطار التوافق بين قول المربي وعمله، وهو من أبلغ عوامل التأثير.

لذا كان رسول الله ﷺ لا يأمر بشيء إلا وهو أول المؤتمرين به، ولا ينهى عن شيء إلا وكان أول المنتهين عنه.

إنّ تطبيق مقرّرات الأطروحة التي يعرضها الرّسول ﷺ على نفسه قبل كلّ شيء، دليل على انسجام عقله وروحه مع جوهر عقيدته ورسالته، وهو مما يعزز من قوة شخصيته وصدقها في إيمانها وعقيدتها، لأنّ الإيمان يجمع ثلاثة عناصر، كما جاء في قصار الحكم عن الإمام علي عليه السلام: «**الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان**»[٢].

ومن هنا يعلمنا الإسلام أن نصدق القول بالعمل والتطبيق في كل قضايانا ومواقفنا، إبتداء من أصغر الدوائر التي نتعامل معها، وانتهاء بالدائرة الإجتماعية العامة.

فكما جاء في الحديث: «**إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم فإنهم يرون أنكم الذين**

(١) نفس المصدر.

(٢) - غرر الحكم: ح / ٢٢٧ .

ترزقونهم»[١].

وفي حديث آخر: «أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالفه إلى غيره، ورجل وعظ أناسا بشيء فعملوا به فدخلوا الجنة ولم يعمل به فدخل النار»[٢].

***

سابعا: شخصيته الحوارية الهادئة

لأنّ كل صاحب فكرة أو أطروحة، يحتاج إلى إسلوب حواري موضوعي في ترويج فكرته، وفي دعوة الناس إلى قبول أطروحته والتسليم لقناعاته.

وعلى هذا الأساس بنى رسول الله ﷺ حركته الرسالية في واقع المجتمع الجاهلي المشرك، وذلك وفقا لما رسمه له القرآن الكريم من خطوط للحوار الموضوعي، وهي – أي هذه الخطوط – كما يلي:

أ – توفير أجواء الحريّة للرأي، وتنقية المناخ الذي يجري في نطاقه الحوار من المواقف والآراء المسبقة، ليشق الحوار طريقه نحو النتيجة المرتقبة.

فينبغي أن تكون الأجواء فارغة من المواقف والآراء المسبقة، التي تعترض طريق الحوار، وتشكل عاملا للضغط على حريّة المحاور، فلو افترض طرف من المتحاورين نفسه أمام خصمه أنه على الحق والصواب، فقد صنع حاجزا نفسيا أمام حرية الطرف الآخر.

لذا أرشد الله عزّ وجل رسوله الكريم ﷺ أن يطرح قناعاته برأيه جانبا، وأن يوحي لخصمه بشكه في ما يتبناه من رأي أو موقف، حتى يثبت الهدى والحق من خلال

(١) – الكافي: ٦ / ٥٠.
(٢) – الكافي: ٢ / ١٧٥.

الحوار القائم على أساس الحاجة للوقوف على الحقيقة من أي طرف كانت، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ب – تواضع المحاور أمام خصمه: ليملك الخصم حريّة الحركة الحواريّة، ولا يشعر بأنه مسحوق تحت عناوين واعتبارات أُخَر، قد تكون عناوين عملاقة تمسك بيدها سوط الإرهاب الفكري ضد الخصم، لذا يعلمنا القرآن الكريم، كيف دخل رسول الله ﷺ في خضم الحوار مع أهل الكتاب والمشركين، وهو في غاية التواضع والتنازل عن كل العناوين التي قد توحي لهم بالتعالي عليهم .

فكان يمكنه ﷺ أن يتفاخر عليهم بالجاه والقوّة والمنصب والعلم والفهم، ولكنه راح يؤكد لهم بشريته بصفتها الجامع المشترك بينه وبينهم، سوى فرق واحد وهو (الوحي)، الذي لم يعرضه في مقام التفاخر، بل في مقام لفت النظر إلى قيام الحجّة عليهم، وإلا لما أكد لهم ضعفه أمام كلّ العوارض والطوارئ التي تضعف أمامها الطبيعة البشريّة.

كما أرشده القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[3].

ج – التجرّد عن التبعيّة العمياء: أي: أن يكون الحوار بعيدا عن المؤثرات الإنفعاليّة

(١) – سبأ: ٢٤ .
(٢) – الأعراف: ١٨٨
(٣) – الكهف: ١١٠

التي لاتدع المحاور يتحرك في إطار رأيه الخاص، بل تفرض عليه التبعيّة أن يتحرك في إطار العقل الجمعي وتحت تأثيره.

وقد أرشد الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يدعو مجتمع الجزيرة، الذين تفشت فيهم ظاهرة التبعيّة العمياء، أن يقوموا لله مثنى وفرادى، ويتجرّدوا عن الجوّ الإنفعالي العام، ثم يتفكّروا في آرائهم ومواقفهم تجاهه.

فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

***

وقفة مع الحوارات المعاصرة

وهنا يتطلب منا وقفة على واقع الحوارات والسجالات الكلامية التي تعتبر من الظواهر التي تشغل الواقع الفكري والإجتماعي في هذا العصر، لذا يقع الحديث في ثلاث نقاط:

الأولى -: نحن نعتقد أنّ الحوار طبيعة فطريّة في الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1]، حيث يستوحى من هذا النص أن الحوار صفة من الصّفات المتأصّلة في طبيعة الإنسان وتكوينه، وفطرة فطره الله عليها.

فهو عندما تنمو عقليته، ويتفتح إدراكه على الحياة، ويرى ما فيها من أوضاع وظواهر وأحداث وأفكار واتجاهات، تتفتح لديه غريزة الجدل والحوار في مرحلة من مراحل حياته، حتى تتنامى لديه قضايا الفكر، وقد تكون لديه نظريّات واتجاهات قد تجرّ وراءها الكثير من الأتباع والأنصار، وتؤسّس في حياة البشريّة دوائر سياسيّة أوإقتصاديّة أواجتماعيّة واتجاهات فكريّة مختلفة.

وقد احترم الله عزّ وجل هذه الطبيعة الحوارية، ومن بوادر هذا الإحترام للحوار، أنه تعالى أول من فتح باب الحوار مع الملائكة حين أراد أن يخلق آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) الكهف: ٥٤

(٢) البقرة: ٣٠

ويستمرّ الحوار بين الله وملائكته، حتى أمرهم بالسّجود لآدم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

وهكذا تنفتح دائرة جديدة للحوار بين الله عزّ وجل وبين عدوّه إبليس، بالرّغم من تمرّده وعصيانه للأمر، تستطيع أن تتابعها في مواضع عديدة من القرآن الكريم، فيستوحى منها أنّ الله عزوجل يحترم المسيرة الحواريّة حتى مع قوّة الحجّة عنده عزّ وجل.

بل حتى في عرصة القيامة لا يستهين عزوجل بهذه الطبيعة الإنسانية، حيث ترك للإنسان حريّة الحوار، وفتح له باب الدّخول فيه للدّفاع عن نفسه، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

غاية الأمر، فإنّ لله الحجة البالغة على الخلق، وإنّ حجج الإنسان لا تصمد أمام حجّة الله عزّ وجل، كما جاء في دعاء كميل: «**وَخالَفْتُ بَعْضَ اَوامِرِكَ فَلَكَ الْحُمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلَي في جَميعِ ذلِكَ وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ وَاَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ**»[3]

الثانية -: من خلال مواكبة الشرائع السّماويّة لطبيعة الحوار في الإنسان، - خصوصا على مستوى القرآن الكريم - ينبغي أن تتهذب حركة الحوار في حياتنا، وأن نستفيد من هذا المنهج في تنمية مواهبنا للدّخول في الحوارات بطريقة موضوعيّة، وتبنّي أساليب الإقناع على مستوى تبليغ مبادئ ومفاهيم الرّسالة الإسلاميّة، طبقا لمنهج الحوار الموضوعي، وهو أن ننتقل بالحوار من واقع الجدل والمهاترات اللفظية إلى واقع الحوار

(١) البقرة: ٣٤.
(٢) النحل: ١١١
(٣) مفاتيح الجنان.

المنتج.

إن مصطلح (الجدل)، وإن كان يلتقي مع مصطلح (الحوار) في بعض الجهات، إلا أنّ الجدل غالبا هو من الظواهر التي تتحرك في أجواء الخلافات والنزاعات والإنفعالات، وفي أجواء التعصب والتمسك ببعض الأفكار، والإصرار على الأخطاء في أغلب الأحيان، بهدف تعطيل قوة المقابل وإفحامه، لا لأجل الوصول إلى القناعة بالحقيقة العلمية.

لذلك يعتبر الجدل في هذا الإطار أمرا مرفوضا في منطق القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2].

أما الحوار، فهو الإطار العام والأوسع مدلولاً لكل أنواع المناظرات والحوارات والمبادلات الفكرية، وهو الذي يؤطر الجدل بإطار موضوعي، ويهذب من حركته، ويحوله من حالة العقم المعنوي والتهافت والمهاترات اللفظية، إلى حالة المضمون الثابت.

لذا قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[4].

---

(١) البقرة: ١٩٧

(٢) غافر: ٥٦

(٣) النحل: ١٢٥

(٤) العنكبوت: ٤٦

وقوله عزوجل ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ تعني تأطير الجدل بإطار الموضوعية، وإخضاعه للضوابط والشروط التي تنتهي بالمتحاورين إلى نتيجة، لا إلى طريق مسدود كما هو الغالب في حواراتنا في العصر الحاضر.

فعندما يريد أحدنا أن يرفض رأيا أو موقفا، أو يقبل رأيا أو فكرة، فلا تتم عملية الرفض أو القبول – غالبا – إلا تحت تأثير الأجواء الإنفعالية، التي يفتقد الإنسان معها طريق الصواب، وتجعله يشكك حتى في أهم المسلمات التي يؤمن بها.

إنك ترى الكثير ممن يقع تحت تأثير المجتمع البعيد عن فهم الإسلام، ويتحرك في خط التأليب الإنفعالي، الذي يصف الإسلام – مثلا – بالقسوة والعنف والوحشية، لأنه يأمر بقطع يد السارق، أوالإقتصاص من الجناة والمجرمين، فإنك تراه في ذات الوقت تفرض عليه تلك الأجواء الإنفعالية بشرعية قتل رجل القانون المسلم واستباحة دم من يعارضه بالرأي أو يخالفه في الموقف، وغيرها من القضايا التي لا تقبل الإختلاف، لأنها تندرج ضمن الحرمات الإسلامية العامة التي نصت عليها الشريعة.

الثالثة –: إنّ ممّا يشهده عصرنا، أننا لانجد التكافؤ الفكري في حواراتنا، فيدخل أحدنا الحوار وهو ليس من أصحاب الفكر والرأي، في الوقت الذي لابدّ أن يعرف المحاور كيف ينطلق، ومن أي نقطة ينطلق في حركة الحوار، وما هي أسباب الإختلاف بينه وبين خصمه، هل هي عقائدية أو اجتماعية أو سياسية أو غير ذلك من الأسباب التي تمثل المحور الذي يدور حوله الحوار.

ثم على المحاور أن يعرف ما هو محل النزاع لو كان الحوار عقائديا، هل هو في وجود الله تعالى، أو في توحيده، أو في بعض صفاته، ثم ما هي النقاط المتفق عليها بين المتحاورين، لتكون مرجعا يرجع إليه المتحاوران، فلا يؤدي بهما الحوار إلى الخلط بين

المطلوب وغير المطلوب.

أما من يريد أن يدخل دائرة الحوار، وليس لديه معرفة بهذه الأصول وبغيرها من الأصول والقواعد التي عرضها القرآن للحوار، بل ولا بالرأي والفكرة التي يحاور من أجلها، فسوف يخلق جوّا من المهاترات اللفظية والإنفعالات التي يغطي بها ضعفه وعجزه.

وهذا ما تشهده بعض حواراتنا التي تدور عبر الفضائيات، فتظهر من خلالها نماذج تتدخل في أمور ليس من تخصّصها، ولا تعرف أصولها وقواعدها وتفاصيلها، فتراها من خلال ذلك تحكم، وتقرر، وتنقض، وتثبت، وتفتي بما يمليه عليها الضعف والهوى والمزاج الشخصي، وإذا كانت تتخبط من خلال ضبابية في أفكارها وآرائها، فكيف تستطيع أن تكشف الضبابية عن أفكار خصومها ؟؟.

لذا يشير القرآن الكريم إلى حالات الجدل الجاهل من قبل تلك النماذج التي ليس لها علم ولا حجّة ولا هدف إلا مخاصمة الرسالة والتكذيب بالحق والتعالي عليه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾.

أي: بغير علم ولا معرفة ولا قوة على إدارة هذه الحركة الحوارية ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

(١) غافر: ٥٦

(٢) يونس: ٣٩

المحور الثاني

وظيفة الرّسول ﷺ في الأمّة

١

الرسول ﷺ والتركيبة الإجتماعية

إنّ أيّة حركة من حركات البناء تكون على نوعين: فتارة تكون مجرّد حركة إصلاحية، تعالج المظهر الخارجي وما علق به من شوائب، مع الحفاظ على الأسس السليمة للبنية، وتارة تكون حركة تغييريّة جذريّة، لا تكتفي بعملية الترميم الخارجي، وإنما تحتاج إلى تغيير الخارطة الكليّة للبناء وإنشاء أسس جديدة.

لذا فإنّ رسول الله ﷺ، بصفته رائدا لحركة تغييريّة جذريّة، كان قد أخذ بنظر الإعتبار طبيعة الساحة الإجتماعيّة التي يتحرّك فيها، فوجدها تتطلب منه جهدا تغييريّا شاملا، وبذلك احتاج ﷺ إلى عملية هدم للبنية الثقافية التي قام عليها مجتمع الجزيرة، ليبدأ بعمليّة البناء وفق الخارطة الجديدة التي رسمتها يد السّماء.

فقد تمثلت ملامح الثقافة الإجتماعيّة آنذاك في ظاهرة الأميّة الجاهليّة، وهي الأميّة العمياء، إذ أنّ هناك أميّة تستبطن معها الإنفتاح والإستعداد للتلقي والمعرفة، وهي الأميّة التي لم تشكل مانعا لمجموعة من الذين آمنوا برسول الله ﷺ الذي نشأ بينهم أميّاً لا يكتب ولا يقرأ، ولكن هناك الأميّة المطبقة، وهي التي تفتقد عنصر التطلع للوعي والمعرفة.

لذلك كانت أمية المجتمع الجاهلي مرتعا ترسخت على ساحته الجهالات والعادات المنحرفة والثقافات الزائفة، التي يتمسك بها، ويتعصب لها أصحابها جاهلين ومتجاهلين كل الدّعوات والبيانات، وقد كانت الأميّة تعم الأعم الأغلب من مجتمع الجزيرة العربيّة آنذاك، كما تحدث لنا القرآن عن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١].

وقد ذكر البلاذري أسماء الذين يقرأون ويكتبون، بما لم يتجاوز عددهم السبعة عشر شخصا في مكة، وأحد عشر شخصا في المدينة[٢].

هذه الأمية قد تأسست على أرضيتها ثقافات وأوضاع وعادات وممارسات إنحرافية معينة، كانت لها السيطرة على كلّ الإرادات والأذواق السليمة، وفي مقدمة هذه الثقافات:

١- ثقافة الشرك بالله عزّ وجل:

وهو الطابع الذي تأثر به الكثير من ذلك المجتمع، مع أن فيهم موحّدين لله تعالى، يقرّون له بالخلق، ولكنهم مشركون به تعالى على مستوى الرّبوبية وتدبير شؤون الخلق.

لذا حكى القرآن الكريم هذه الصورة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

فلم تتسع أفكارهم للتوحيد المطلق، وكانوا يرون من الصعوبة بمكان أن يمحضوا عقولهم للإيمان والطاعة للقوة الغيبية المطلقة بلا توسط تلك المعبودات الزائفة التي عكفوا عليها، فقال تعالى عنهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٥].

---

(١) البقرة: ٧٨

(٢) فتوح البلدان: ص: ٢٥٧

(٣) العنكبوت: ٦١

(٤) لقمان: ٢٥

(٥) الزمر: ٤٣

٢- ثقافة التحلل الأخلاقي

وهو الخروج والإنفلات عن الضوابط والقيم الأخلاقية، وإشاعة الفساد، والفحشاء، والمنكر والسلوك اللامشروع، حتى ذكر أن عبد الله بن أبي كان له ست جواري، وكان يكرههن على الفاحشة والبغاء بغية كسب المال.

حتى نزل تحريم الزنا والفاحشة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[1] ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[2]، جئن إلى رسول الله ﷺ وشكين له ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[3].

هذا مضافاً إلى أكل الخبائث، ومعاقرة الخمرة في نواديهم ومجالسهم، وقد تناول القرآن الكريم هذه الظاهرة بالذكر والتأكيد على عدم مشروعيتها في كثير من آياته، فقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ... ﴾[4].

ومن خلال تشبث أبناء المجتمع الجاهلي وشغفهم بالخمرة، حيث كانت تشكل جزءا من حياتهم وسلوكهم ومعاملتهم، فقد سلك القرآن طريقة التدرج في التحريم.

لذا نزل قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ

(١) الإسراء: ٣٢
(٢) الأنعام: ١٥١
(٣) النور: ٣٣
(٤) المائدة: ٣

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١]، في ظرف لا يمكن الزجر والنهي الشديد، فاكتفى بكلمة (سكرا) في مقابل الرزق الحسن.

فقد جاء في سنن أبي داود، ومستدرك الحاكم، أنه لما نزل تحريم الخمر، قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...﴾[٢]، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[٣].

فكان منادي الرسول ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا بيانا شافيا، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٤]، قال عمر: إنتهينا إنتهينا[٥].

٣- ثقافة الوأد والقتل

أي: دفن البنات أحياء، وقتل الأولاد خشية الإملاق، واصطلحنا على ذلك بالثقافة، لأنها إفراز من تصورات ومفاهيم فكرية ضيّقة، تملي على أولئك أنماطا معينة من السّلوك والتصرّفات والعادات السيّئة، كعادة وأد البنت، الناتجة من تصوّر: أنّ وجودها عار على الأب في مجتمع يحكمه التفاخر والعصبيّات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

---

(١) النحل: ٦٧

(٢) البقرة: ٢١٩

(٣) النساء: ٤٣

(٤) المائدة: ٩١

(٥) المستدرك للحاكم: ٢ / ٢٧٨ و سنن أبي داود: ٢ / ١٢٨ .

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1].

لذلك أنكر القرآن عليهم عقيدتهم بأنثوية الملائكة، بقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2]، فقرّر القرآن الكريم في فقرات هذا النص: أن قولهم هذا يستلزم ثلاثة لوازم:

أ-: يلزم منه أن يكونوا أفضل من الله عزّ وجل، إذ ينسبون له ما تستهجنه طباعهم، وما تشمئز منه أنفسهم ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾.

ب -: أن يكونوا قد شهدوا خلق الله عزّ وجل، واطلعوا على غيبه، وهم منكرون لحقيقة الغيب، ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ وإلا فكيف حكموا على ربهم بهذا الحكم؟.

ج -: يلزم من قولهم هذا، أن يكون الله عزّ وجل قد ولد الملائكة، وهو إفك يفترونه ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾، بل هو الواحد الأحد الفرد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وأما قتل الأولاد: فهو ناتج من التصوّر المادي، والبعد عن القوة الغيبية المطلقة المدبّرة لأمر الخلق كله، فتكون الخشية تارة من عدم القدرة على تحصيل الرزق لهم، وتدبير أمر معيشتهم.

لذا جاء الخطاب القرآني ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ

(١) النحل: ٥٨ - ٥٩ .
(٢) الصافات: ١٤٩- ١٥٢.

وَإِيَّاهُمْ ... ﴾[1]، وتكون الخشية تارة أخرى على الأولاد، بأن لا تكون لهم القدرة مستقبلا على تحصيل رزقهم بأنفسهم، لذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[2].

(١) الأنعام: ١٥١

(٢) الإسراء: ٣١.

التشدق بأمّة ما قبل الإسلام

ومن خلال هذه الظواهر والسلبيات، يظهر خور الذين يتشدّقون بتأريخ العرب قبل الإسلام، ويخلقون لهم الهالة الإعلامية، ويدّعون أنّ التأريخ قد ظلم الأمة العربية بذكر هذا وذاك من السلبيات، ونادوا بكتابة التأريخ من جديد.

وقد حاول الطاغية صدام المقبور ذلك، ليزيل بشاعة هذا الواقع من ناحية، وليبرر انحراف الأمة عن رسالتها من ناحية أخرى، ويظهرها بمظهر اللياقة لحمل المسؤولية رغم بعدها عن رسالة الإسلام.

ولا شك في أنّ هذه المحاولة، تشكل حملة ضد القرآن الكريم، لأنه سلط الأضواء على واقع هذه الأمة، وأشار إلى مواقع الخلل الذي بنيت عليه، وهو يشير كذلك إلى واقع الأمة اليوم، بعد أن جمّدت الإسلام عن التدخل في قضاياها وشؤونها، وأخذت تتحرك في ركاب أعدائه، وتستعين بهم في حل مشاكلها، وبناء حضارتها وثقافتها، وهي تعيد التجربة الجاهلية من جديد.

أنى لهذه الأمة أن تكون لها القدرة على حمل مسؤولية العالم، مالم تستلهم مقومات اقتدارها من جوهر رسالتها، وترفض كل مواقف التعصب للعناوين الضيقة التي حجّمت دورها، وشتتت أمرها، وأضعفت من قدراتها؟.

فإنّ جزءا من الأمّة قد تأطر بعنصر التعصب لشخصيته الإقليمية، بمعنى أنّ الفرد الذي في هذا البلد غير الفرد الذي في البلد الآخر ولو كان مسلما، وتأطرالجزء الآخر

منها بعنصر التعصّب لشخصيته القوميّة، بمعنى أنّ هناك حاجزا بين المسلمين، يسمّى (القومية)، فمن لم ينتسب إلى القوميّة الفلانية، فهو ليس جزءا من كيانها مهما يكن قربه من ربّه ودينه.

وهناك من تأطر بعنصر التعصّب لشخصيته الحزبية، بمعنى أنّ من لم ينتسب لهذا الحزب أو ذاك لا يمثل جزءا من كيان هذه الأمّة، وتصبح مصالحه عرضة للإهمال، أما الجزء الأكبر من هذه الأمة فإنه مضى يتعصّب لشخصيته المذهبية، بمعنى أنّ أتباع مذهب معيّن خير في دينهم من الآخرين.

وإنْ كان منْ حق كلّ أحد أنْ يركن إلى قناعاته بخطه المذهبي، ولكن لاعلى حساب الإسلام ومصلحة الرّسالة والأهداف المشتركة بين المسلمين، فإنّ التفريط أو ضرب جزء كبير من المسلمين له ثقله ومكانته وموقعه في التأريخ، من حيث الفكر والثقافة والرؤى الإسلامية، يشكل خسارة كبرى، وتضييعا للمصلحة الإسلامية.

فلقد كان اليهود منْ أهل الكتاب يشيرون إلى المشركين وعباد الأصنام، فيقولون: (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) طعناً في دين المسلمين الذين آمنوا بالله تعالى وحده، واليوم يشير بعض المسلمين إلى اليهود، وإلى جحدة الكتاب والسّنة، ويقولون هؤلاء أهدى من كلّ المسلمين، يا لمأساة الأمة من هؤلاء المسلمين.

إذن ليس هناك أمّة إسلاميّة بالمعنى السّياسي للأمّة، وهو: أن تلتقي الأمّة في موقع واحد، وفي خط واحد، في جميع شؤونها وقضاياها، بالرّغم من اختلاف لغاتها وقوميتها ومذهبيتها، حتى يتحقق فيها قول الله عزّ وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾[1].

(١) آل عمران: ١١٠ .

الرسول ﷺ وعملية التغيير المضنية

لقد شهدت الإنسانية والتأريخ مدى صعوبة العمليّة التغييريّة التي مارسها رسول الله ﷺ بادئ الأمر، في حق تلك التركيبة الإجتماعية المعقدة، بأرقى وأدق وأتقن الأساليب والآداب والحوارات الإنسانية، وتحمل ألوان الأذى والعذاب والمشقات، وهو القائل: «**ما اوذي نبي مثل ما اوذيت**»[1]، فكأن كل تلك الرواسب والسلبيات الإجتماعية التي واجهها الأنبياء عليهم السلام قد اجتمعت في هذه التركيبة الإجتماعية.

لذا فإنّ هذه التركيبة الإجتماعية، لم تسمح أن تتغير من داخلها لما فيها من رواسب وعادات وتقاليد وعصبيات، تنكرت لقيم ومبادئ السماء، وأصرّت على عنادها وصدودها، ورصدت الحركة الإسلامية الجديدة بألوان من المكائد والمؤامرت والتصفيات والمطاردات للعناصر النشطة على خط الرّسالة.

ومنها العزم على تصفية القيادة الإسلامية المتمثلة في رسول الله ﷺ والتخلص منه بتخطيط محكم ودقيق، شاءت حكمة الله عزّ وجل وعنايته بالرسالة، أن يكشفه الوحي لرسول الله ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2].

(١) بحار الأنوار / للعلامة المجلسي/ ج٣٩ ص٥٦.

(٢) الأنفال: ٣٠

الهجرة حركة من أجل التغيير

وعلى هذا الأساس تبنى رسول الله ﷺ بأمْر الله تعالى ووحيه، حركة الهجْرة التي كان حدثها مهمّا في تأريخ الحركة الإسلامية التي ولدت في واقع الأمة على يد رسول الله ﷺ في حدود جغرافية معينة، وكانت الهجرة بداية الخطى على طريق الفتح للعملية التغييرية الشاملة، وكان للهجرة حركتان:

الأولى: حركة من مكة إلى الحبشة، على خلفية ما تعرض له المسلمون في مبدأ الإسلام الأول، من إضطهاد وأذى ومطاردة وحصار وتعذيب، وسقط منهم شهداء على خط الإسلام، مثل ياسر، وسمية أم عمار، وغيرهما، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر جمع من المسلمين يقدمهم جعفر بن أبي طالب إلى تلك المملكة، فرارا من الإضطهاد إلى الأمن والجوار.

الثانية: حركة من مكة إلى المدينة، وذلك من أجل أن تكون المدينة قاعدة جديدة لإنطلاق الحركة الإسلامية وبناء الحكومة، وقد انضم ذلك الجمع بعد رجوعه من الهجرة الأولى، وبعد تعرضه إلى الأذى الشديد، إلى ركب الهجرة الثانية الكبرى مع رسول الله ﷺ.

ميزات الهجرة الثانية

فقد كانت حركة الهجرة الثانية، قد تميزت عن الهجرة الأولى في الخلفية والنتيجة، بميزات هي:

أولا: كانت هذه الهجرة حركة للقيادة الإسلامية، وتحوّلا في إسلوب عملها، وذلك بعد أن أحدق الخطر بالحركة الإسلامية، من خلال المؤامرة التي خططت لها قريش لإغتيال الرمز الأول للقيادة الإسلامية، لولا أن الله عزّ وجل أنبأ رسوله ﷺ بما جاء في الآية ٣٠ من سورة الأنفال ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

ثانيا: كانت هذه الهجرة قد حدثت على خلفية الوعي الدقيق للمؤامرة التي حيكت على قائد الرسالة، لذا فإنها تحركت بالدعوة الإسلامية من موقع الضعف إلى موقع القوة، لأنها جاءت بمقتضى الأمر الإلهي، فعطف الله عزّ وجل عليها قلوب القبائل من الأوس والخزرج وغيرها، فبدأت الوفود تترى على رسول الله ﷺ بالتأييد والنصرة، لتشكل القاعدة الجماهيرية الأولى لإمتداد الدعوة الإسلامية في المدينة.

ثالثا: كانت هذه الهجرة جماعية حتمية، وذلك بعد أن تكشفت خطوط الحركة الإسلامية لقريش من العمل السري إلى العمل العلني، وأخذت الدعوة أثرها في الأوساط الشبابية من أبناء قريش، مما دفع بقريش أن تعد العدة لإفشال الأطروحة الفكرية الإسلامية الجديدة، فتبنت أسلوب الإغتيال والمطاردة والتضييق على المسلمين، حتى لحقهم من الأذى ما لا يطاق.

فكانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾[1]، فكانت هجرتهم إلى الله تعالى في ظروف تزخر بالتضحية بالأهل والبيت والمال والأرض، فهي تضحية عاطفية وإقتصادية من أجل المستقبل المأمول.

رابعا: كانت هذه الهجرة، قد جمعت بين فئتين من الناس، المهاجرين والأنصار، وخلقت حالة من التداخل في الموقع بين هاتين الفئتين، فكان الجميع يمثلون مصدر قوة للرسالة، ونموذجا للتلاحم والإخاء، وصورة من صور البرّ والإحسان والإيثار، فكانوا موضع ثناء الله ومدحه، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

(١) – النساء: ٧٥

(٢) – التوبة: ١٠٠

الهجرة في التأريخ الحديث

لقد كانت الهجرة في التأريخ الإسلامي تحمل هموم الرّسالة الإسلامية، لأنها كانت هجرة من أجل مواجهة الضغوط التي كانت تتعرّض لها الحركة الإسلامية، فبقي المسلمون يعيشون هاجس الهجرة في كافة المراحل الزمنية التي كان يواجه فيها الإسلام حملات المعارضة والصّد من قبل أعدائه.

فقد انطلق المسلمون – بدينهم – تباعا، إلى أقاصي العالم، إمّا تحت ظلّ الفتوحات العسكريّة، وإمّا للأغراض التجاريّة، وإمّا للأغراض الثقافية، وهكذا نلاحظ إنتشار الإسلام في جزء كبير من العالم، بسبب تتابع الهجْرات والتحرّكات.

أمّا الهجْرة في التأريخ الحديث، والتي ابتدأت بوادرها بعد أو خلال الحرب العالميّة الأولى، وذلك لظهورالكثير من الأزمات الإقتصاديّة الحادّة، وتعرّض المسلمين لمجاعات في أكثر بلدان العالم الإسلامي، مما دفع بالكثير منهم للهجْرة والتغرّب إلى بلاد الغرب كأميركا، والدول الأوربّية، وغيرها من البلدان.

وقد وقعت الكثير من الأسر الإسلاميّة – مع شديد الأسف – تحت تأثير الثقافات والأفكار والمفاهيم والأنماط السلوكيّة الغربية، وفقدت هويتها الإسلاميّة في تلك البلدان، كالأرجنتين، وفي تشيلي، وفي كوبا، وفي دول أمريكا اللاتينية، وذلك للأسْباب التالية:

١. جهل هؤلاء بأصول دينهم ومفاهيم رسالتهم.

٢. فقدان الموقع الإسلامي في البلاد التي هاجروا إليها.

٣. قطع خيوط الإرتباط، وعدم التواصل بينهم وبين البلدان الإسلاميّة.

وحتى اليوم تتعاقب الهجْرات، وتنطلق الرّحلات إلى بلاد الغرب وغيرها لأكثر من سبب في ظلّ الحكومات الظالمة التي تحكم بلدان العالم الإسلامي، فلم يبق إلا الذين لاحول لهم ولا قوّة على الهجْرة، لذا تتلخص أسباب الهجْرة في ما يلي:

١- السّبب الأمني: وذلك لوقوع أكثر البلاد الإسلامية تحت السيطرة الإستعمارية، وتفشي العمليّات الإرهابيّة، سواء من الداخل ضدّ العناصر التي لا تتعاون مع توجّهات ورؤى السّلطات الحاكمة، أو من الخارج بهدف خلق حالة الفوضى واللاإستقرار، لفرض السّيطرة على الثروات والمقدّرات لهذا البلد أو ذاك.

٢- السّبب الإقتصادي: وذلك لتفشي البطالة والرّكود الإقتصادي في البلاد الإسلاميّة، وانحصار المشاريع ومرافق العمل بأيدي الجهات المتنفذة.

٣- السّبب الثقافي: وذلك لعدم وجدان الطبقة المثقفة وأصْحاب الكفاءآت العلميّة، المجال الذي يؤدّي فيه هذه الطاقة في البلاد، لاسيّما وأنّ هناك سوقا عالميّا لشراء الأدْمغة والكفاءآت العلميّة التي لمْ تجدْ قبولا في بلدانها.

٤- السّبب السّياسي: وذلك لكوْن أكثر البلدان الإسْلاميّة، تخضع للسّياسات والأحكام الدكتاتوريّة، التي لا تسمح لأيّ جهة فكريّة أوْ دينيّة أوْ سياسيّة للدّخول معها في الرّؤية والموقف السّياسي، ولا تسمح لأيّ من التكتلات السّياسيّة بممارسة حرّيتها في طرح رؤيتها وفكرتها السياسيّة.

لذلك ينبغي أنْ تخضع مسألة الهجْرة لدراسة هادئة متأنية، لرسم ثقافتها، وتفادي سلبياتها وفق الملاحظات التالية:

١. دراسة الجانب الشرعي للهجْرة من قبل المسلمين، لمعرفة متى، وإلى أيّ وسط من الأوساط يهاجر الإنسان المسلم.

٢. وضع المنهج الذي يجب أنْ يلتزمه المهاجرون.

٣. وضع لجْنة لمتابعة أحْوال المهاجرين، وأنماط حياتهم وسلوكهم.

متى تكون الهجْرة مشروعة

ركز القرآن الكريم على العنوان، أو قل: الخط الذي ينبغي أنْ تتحرّك الهجْرة في نطاقه، وهو: (سبيل الله) فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

إنّ كلمة (الذين آمنوا) ترمز إلى الأساس الذي تبتني عليه الرّحلة، وهو: الهجرة القلبيّة إلى الله تعالى بالفكر والرّوح والعاطفة، والإلتزام بمبادئ وأسس العقيدة التي يستلهم منها الإنسان المسلم ثقافة الهجْرة ومفاهيمَها، ليتهيّأ لمواجهَة التيارات الفكرية، والصعوبات والأوصاب بكل أشكالها.

وأما كلمة (سبيل الله) فهي لم تتحدد بالجهاد خاصة كما يتصور البعض، بل تتسع لكل نشاطات الإنسان المؤمن، لأنّ الله عزوجل خلق الإنسان ليتطوّر، ويستثمر الأرض، ويعمر الحياة، ويجعلها أكثر إنتاجاً في كلّ الميادين، في الطاعة والعبادة، وفي طلب الحلال، والجهاد والدفاع عن الحق، وفي كلّ أبواب المعروف الإنساني.

لذا فإنّ الهجرة المشروعة، هي: كلّ حركة ترسم لها غاية من الغايات التي تلتقي في سبيل الله عزوجل، ومن هذه الغايات:

أولاً: الهجرة لطلب الحلال، فقد تضيق الحياة الإقتصادية على الإنسان المؤمن، وتنغلق بوجهه طرق الكسب الحلال، فلا يجد وسيلة لتأمين العمل والكسب إلا الهجرة

---

(١) البقرة: ٢١٨.

والحركة في الأرض، والغربة عن الوطن، فلا شك تكون الهجرة في هذا الحال هجرة في سبيل الله تعالى، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... ﴾[١].

اجتاز النبي ﷺ ومعه جماعة من أصحابه برجل، فرأى الصحابة من جده ونشاطه ما اعجبهم فالتفتوا الى النبي ﷺ فقالوا له:يا رسول اللهّ، لو كان هذا في سبيل الله؟

فأجابهم ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده فهو في سبيل اللهّ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وان كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله**»[٢].

وقال ﷺ: «**الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[٣]، وفي حديث آخر له قال: «**العبادة عشرة أجزاء** – وفي رواية –سبعون جزءا – **أفضلها في طلب الحلال**»[٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى ليحب الإغتراب في طلب الرزق**»[٥]

ثانيا: الهجرة من أجل الحفاظ على العقيدة والبناء الديني، وتحصين الشخصية من فتنة الإنحراف عن الدين تحت الإضطهاد والضغط، كما هي مشكلة العصر حيث يعاني الإنسان المتدين من الإضطهاد والإذلال من جراء الأنظمة الظالمة، التي تحاصر الشعوب المسلمة، وتكبت حريتها، وتتدخل في خصوصياتها وفي طريقة إلتزامها، وتحاول أن تملي عليها الأفكار والتصرفات لتغير وجهتها الدينية والمذهبية.

وهكذا يتحول البلد إلى سجن كبير يختنق فيه النفس الديني إلا في حدود ما يخدم

(١) النساء: ٩٩.
(٢) العمل وحقوق العامل في الاسلام/ باقر شريف القرشي/ ص١٢٩.
(٣) بحار الأنوار: ١٠٠ / ١٣.
(٤) الكافي: ٥ / ٧٨.
(٥) من لا يحضره الفقيه: ٢ / ١٥٦.

السلطة الحاكمة، فتكون الهجرة في هذه الحالة فراراً بكرامة الدين أمراً مشروعاً.

قال رسول الله ﷺ: «**من فر بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد**»(١).

وكما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾(٢)، قال: «**لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة**»(٣)، وقال الإمام الصادق عليه السلام حول نفس الآية: «**إذا عصي الله في أرض أنت فيها فاخرج منها إلى غيرها**»(٤).

ثالثا: الهجرة من أجل الدعوة إلى الله تعالى، فقد لايستطيع الإنسان المؤمن الداعية أن يوصل صوته إلى مسامع الأمة، ولايستطيع أن يتحرك بفكره ويجاهر بعقيدته في الوسط الإجتماعي، لأنّ بعض السلطات تتحسس من الدعوة إلى الله والرسالة ما يقض مضجعها ويهز كيانها، لبعدها عن الحق. فتتربص للمؤمن الداعية كل مرصد فلا يستطيع أن يشق طريقه في أداء مسؤولية التبليغ من خلال بلده الذي هو فيه، فتملي عليه مصلحة رسالته أن يتبنى مسؤولية التبليغ ويجاهر بخط الدعوة إلى الله تعالى من خلال الهجرة.

***

(١) بحار الأنوار: ١٩ / ٣١ .
(٢) العنكبوت: ٥٦
(٣) ميزان الحكمة: ١١ / ١٦
(٤) بحار الأنوار: ١٩ / ٣٦

الخطوط الشاملة لوظيفة الرسول ﷺ

فقد حدّدت الآية الكريمة التي تصدّرت حديثنا هذا، لأداء الرّسول ﷺ في الأمّة ثلاثة خطوط واسعة الأفق، شاملة لكل المتطلبات التي تمس بحياة الأمّة، تتمثل فيما يلي:

الأوّل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]، وهو مايعني تقويم السلوك العام، وتنزيهه وفق منهج تربوي وقانون أخلاقي شامل، يضفي على التعامل الإجتماعي صفة الطهر والنقاء من كل شوائب الإنحراف والشذوذ، ويعبّد طريق الأمّة من العثرات ومواقع الزلل، ويفتح السبيل أمامها لتولي مسؤوليتها تجاه الله عزّ وجل.

وبعبارة مختصرة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملية مسح شاملة أمام التطبيق السليم لرسالة الإسلام في واقع الحياة.

فإن مثل واقع الحياة الإجتماعية كمثل الأرض التي لايمكن أن تحتضن البذرة وتغذيها بعناصر الحياة، مالم يجر الزارع عليها مسحا شاملا، لإزالة كافة العراقيل والعلائق التي تقتل فيها الإستعداد لإحتضان البذرة ومدّها بالحياة، لتنمو وتترعرع فتعطي أكلها كل حين بإذن ربّها.

لذا تواترت نصوص المعصومين عليهم السلام في الحث على هذه الفريضة لكونها - من ناحية- خلقا من أخلاق الرّسالة والرّسول ﷺ، فيعتبر الإلتزام بها اقتداء برسول

(١) الأعراف: ١٥٧.

الله ﷺ فيما يعتقد ويقول ويعمل.

ومن ناحية أخرى: فهي من أهم ركائز الرّسالة وقواعدها التي تبسط سيطرتها على واقع الأمّة، إذ لا شك أن استيلاء الأشرار والظلمة على واقع الحياة، واستبدادهم بالمقدّرات، واستهانتهم بالحرمات.

كل ذلك يعتبر نتيجة طبيعيّة لضعف القاعدة، وموت الاستعداد لتقبل عدل الرِّسالة الإسلاميّة في الواقع الإجتماعي، من خلال ترك هذه الفريضة المقدّسة، فيصبح الواقع الإجتماعي مرتعا لنزوات ونزعات أرباب الشر، وساحة ميتة، تطؤها حوافر الضباع العادية والوحوش الضارية.

عن محمّد بن عرفة، قال: سمعت أبا الحسن الرّضا عليه السلام يقول: «**لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»(١).

ويروى عن الإمام عليّ عليه السلام – في حديث حول سلسلة من الآيات الواردة بهذه الفريضة – قال: «**فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فريضة منه لعلمه بأنّها إذا أدّيت وأقيمت، استقامت الفرائض كلها هيّنها وصعبها**»(٢).

ومن الجدير بالذّكر، أنّ المضمون الذي يعطيه قوله عزّ وجل: ﴿ **كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ** ﴾(٣)، هو الأساس الّذي يعتمده الرّسول ﷺ ومَنْ على خطّه، في تربية الأمّة على خط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يمثّل هذا الخط عنصر القوّة في إرادة الأمّة، والرصيد الذي من خلاله تنبعث الأمّة لمواصلة المسيرة

(١) الوسائل: ١٦/ ١١٧.
(٢) الوسائل: ١٦/ ١٣٠.
(٣) البقرة: ١٥١.

الإسلامية بعد رسول الله ﷺ

لأن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يحتاج إلى استكمال العدّة من الإيمان والعلم والمعرفة.

فقد نهض رسول الله ﷺ ببناء هذه العدّة في شخصيّة الأمّة، لتكون خير أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، ويتمثل هذا الرصيد في ثلاثة ملامح:

١ - ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾، بما تحمل آيات الله عزّوجل من مفاهيم تناغم الوجدان الإنساني، وتتفاعل مع واقع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

لأن القرآن حديث الفطرة، الذي لا يضاهيه حديث في التأثير: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1].

فلو تُرِكَ الإنسان وفطرتَه دون معاكسة أو إعراض، لكان أقرب إلى الإستجابة لأمر السّماء، ولكنّ الإنسان بعناده وصدوده عن الأجواء الروحية الجذابة، التي هي سرّ الإعجاز الذي أودعه الله في كتابه الكريم، وبهذا الإعراض والصدود عن الله عزّ وجل، يخلق الإنسان لنفسه عوامل الضلال والضياع.

كما فعل جماعة، وهم ثلاثة من أقطاب قريش، أبو جهل وأبو سفيان وأخنس بن شريق، عندما كان رسول الله ﷺ يتلو ما ينزل إليه من القرآن الكريم، وهم يسمعون من رسول الله ﷺ ما يتلو، فلمسوا ذلك التأثير، وأحسوا بقوّة الجاذبية نحو تلك

(١) الزمر: ٢٣.

الأجواء القرآنية السامية .

ولكنهم لم يريدوا أن يخسروا موروث الآباء والأجداد، فولوا على أدبارهم معرضين وعاكسوا الفطرة، فجاء فيهم قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[1].

فقد جرت سنة الله تعالى أن يضل من أعرض عن الهدى﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[2]. ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[3].

٢- ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾[4]، بما يؤديه القرآن من عملية التزكية، وتنمية المواهب وتجلية الإستعدادات الخيّرة في النفوس، وتطهير القلوب وتصفيتها من الّرواسب العالقة فيها، من الحقد والحسد والأنانية، وبعملية المسح هذه، تتهيأ الأرضيّة الصّالحة للغرس الجديد وهو الكتاب والحكمة، وما لم يكونوا يعلمون.

فإنّ جزءا من وظيفة القرآن الكريم، ينصب في سبيل إنقاذ الإنسان من طغيان غرائزة وميوله النفسيّة على قيمه وأخلاقه، إذ لا شك في أن الغرائز تشكل عاملا خطرا على الذات الإنسانية، وتنسي الإنسان أخلاقه، وتقتل مواهبه والعوامل الخيّرة في نفسه. فغريزة حبّ الذات، وغريزة حب المال، وغريزة الجنس، إن لم يرسم لها مسارها وطريقها

(١) الإسراء: ٤٧ – ٤٨

(٢) الزمر: ٢٣

(٣) طه: ١٢٤ – ١٢٦ .

(٤) البقرة: ١٥١.

الشرعي فإنها تصبح عامل تدمير وتعدٍّ على قيم الإنسانية.

٣- ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[١]، والتعليم هو تأسيس معارف جديدة، وبناء قاعدة فكريّة خالية من الأوهام والأضاليل الجاهليّة، وبيان ما أبهم من الحقائق والمعارف للعقل الإنساني، فقد صنعت الرسالة من رسول الله ﷺ معلما للأمة.

لذا كان مما قال عيسى بن مريم عليه السلام عن نفسه: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾[٢] أي: جعلني معلما للخير[٣]

وترتكز وظيفة التعليم على ركنين أساسيين هما: الكتاب والمعلم، الذين لايغني أحدهما عن الآخر، وبما أنّ الأمة بحاجة إلى هذين الركنين، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[٤].

وحتى الآن لازالت الأمة بحاجة إلى الكتاب والمعلم المعصوم، أو من ينوب عنه وهو الفقيه العارف العادل، ومن يقول أننا نكتفي بالرسالة العملية عن الفقيه فهو مخطئ، كما كان واهما من يقول: حسبنا كتاب الله.

* * *

الثاني: تحليل الطيبات وتحريم الخبائث

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[٥] لمّا كان الأمر بالمعروف

(١) البقرة: ١٥١.
(٢) مريم: ٣١
(٣) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ٧١/ ٣٤١.
(٤) الإفصاح: ١/ ١٢٨
(٥) الأعراف: ١٥٧

والنّهي عن المنكر هو المسح الشامل لتطهير الرّوح وتقويم السّلوك، لتقبل المبادئ العملية الجديدة للحياة، فإن تحليل الطيّبات وتحريم الخبائث هو منهج غذائي شامل لتقويم البناء الجسدي لكلّ فرد، بما له من صلة وتأثير على واقع النفس.

ولنقف عند هذه المسألة بسؤال هو: هل أن مسألة الحلال والحرام في الغذاء مسألة تعبّديّة، أم أنّ هناك أسرارا علميّة معيّنة للتحليل والتحريم قد اعتمدها التشريع؟.

الجواب: إذا أردنا أن ندّعي أنّ هناك أسرارا علميّة يستند إليها التشريع في التحليل والتحريم، تكتشف وفقا لتقدّم العلوم وتطوّرها، وإذا أردنا دراسة أسرار التشريع على ضوء هذا التقدّم العلمي، فإننّا بهذا المدّعى نكون قد تجاوزنا قدراتنا وإدراكاتنا المحدودة.

لذلك، ينبغي أن يكون واضحا أنّه ليس كلّ مانسمّيه علما هو الصحيح ويبقى صحيحاً، لأنّنا قد نقطع بصحّة النظريّة العلميّة، ونأخذ بها كحقيقة من المسلّمات فيتبيّن خطؤها بعد حين.

ألاترى أنّ (**فرويد**) طرح نظريّته العلميّة التي يفسّر بها جميع تصّرفات الإنسان ونشاطاته الفكريّة والسياسيّة والإجتماعيّة بالعامل الجنسي، بحيث يكون تديّن الرّجل والتزامه وصلاته واختراعاته وإبداعاته من أجل أن تحبّه امرأة.

وجاء (**كارل ماركس**)، ليفسر هذه النّشاطات، ويربط كلّ تغيّر يحدث في واقع الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة بالعامل الإقتصادي.

ويأتي (**هتلر**) ليقول: أنّ حبّ الذات والمطامح الشخصيّة والأنانيّة، هي مركز ومرجع كلّ سلوك ونشاط في كافة نواحي الحياة، ولكنْ بعد أن ثبت خطأ هذه النظريّات وفشلها، هل يمكن أن يصطلح عليها بمصطلح العلم؟.

الجواب: كلاّ، لأن تسميتها بالنظريّة العلميّة من باب التجوّز لا الحقيقة. وذلك للفرق بين النظرية والعلم، فإن النظريّة مجرد وجهة نظر تفسر بها الأشياء دون أن تستند إلى دليل وحجة.

أمّا العلم، فهو مايصلح للإحتجاج والثبات أمام كافة المدّعيات والنقوض، لأنه يكشف عن حقيقة ثابتة قام عليها برهان وحجة قاطعة على مستوى مسلّمات عقلية.

إذا عرفنا ذلك، فلنا أن نسأل: أي علم هذا الذي نفسر الدّين على ضوئه، ونكشف عن علل وأسرار التحليل والتحريم بواسطته؟ هل هو العلم الذي وضعه الإنسان على شكل نظريّات وتخمينات معيّنة؟.

فعلى هذا لانستطيع أن نثبت السّر الحقيقي لأحكام التشريع، لأن التشريع الإلهي أعمق من النظريّة التخمينية، وأما إذا كان ما نفسر على ضوئه أسرار التحليل والتحريم هو العلم الحقيقي والمعرفة التصديقيّة، فهو ليس بالمقدور لنا على كل حال، وكما قلنا أننا في هذا التفسير نتجاوز قدرتنا وحدودنا.

***

هل من رأي للمفسرين؟

ويبقى السؤال عالقا في الأذهـان، هل هناك آراء لأربـاب التفسير للآية التي تقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[1] ولو على نحو الإحتمال لا القطع ؟. الجواب: لقد وردت حول هذه الآية ثلاثة آراء من خلال السياقات التفسيرية:

الأول: يوحي رأي بعض المفسرين، بأن هذه الآية تتماشى مع الأهداف النفسيّة للإنسان، بمعنى أنّ فطرته الّتي فطره الله عليّها تستطيب الحلال وتستقذر الحرام والخبائث.

ولكن لا يخفى أنّ هذا التفسير ليس علمياً، إذ لم تعد كل الشعوب والأمم تتفق في هذا الإتجاه، فقد يستطيب إنسان شيئا ويستقذره الآخر، بغض النظر عن تلوث الفطرة وعدم استقامتها عند البعض.

فهناك فطرة سليمة مستقيمة تستقذر أشياء بطبيعتها سواء نهى عنها الدّين أم لم ينه، ولا تستقذر الأشياء الّتي نهت عنها الشريعة، مثل (الخمر)، ولذلك كان البعض يقول عنها: ولا لذة أفضل منها.

جاء في الإحتجاج، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، أنّ زنديقاً قال له: لم حرّم الله الخمر ولا لذة أفضل منها؟ قال عليه السلام: «**حرّمها لأنها أم الخبائث، ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبّه، فلا يعرف ربّه، ولا يترك معصية إلا ركبها، ولا يترك حرمة إلا**

(١) الأعراف: ١٥٧

انتهكها، ولا رحماً ماسّة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا آتاها، والسكران زمامه بيد الشّيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيث قاده»[1].

فلا صلة للتحريم في هذا المورد بالإستقذار الفطري سوى ما يلمح إليه الحديث من آثار هذا المحرّم أو غيره من المحرّمات.

الثاني: قال بعض المفسرين: إن الحلال حلال بحكم الحسن العقلي في المحلل، والحرام حرام بحكم القبح العقلي في المحرم، بمعنى أن الحلال حَسِنٌ ذاتاً والحرام قبيح ذاتاً، ولم يكن للتحليل والتحريم في الشريعة دور سوى الكشف عن الحَسِنِ والقبيح الثّابتين في الأشياء.

ولكن لايخفى - أيضا - في هذا الرأي من عدم الدقّة، لأن هناك محرّمات لم يقطع العقل بقبحها الذاتي كما أنّ هناك محلّلات في الشّريعة لم يقطع العقل بحسنها الذاتي، بالرغم ما للعقل من إدراك لقبح بعض الأشياء وحسن الأخرى قبل إرسال الرّسول ﷺ، وهي أشياء وتصّرفات معيّنة تباينت كافة العقول على حسنها أو قبحها، خصوصاً على مستوى العادات والتقاليد والأخلاق التي تؤطر الحياة الإجتماعية العامّة وليس على مستوى أحكام التشريع التي يخفى الكثير من أسرارها على المدركات الإنسانيّة.

الثالث: يرى بعض المفسرين، أن بهذه الآية، يريد الله عزّ وجل أن يحرّرالإنسان المسلم من سلطان وقيود البيع والكنائس وغيرها من الأنظمة، وهو السّلطان المادي، وليربطه بسلطان روحي جديد يؤمن بمتطلبات الجسد والرّوح على حدٍّ سواء في جميع التصّرفات والنشاطات.

---

(١) الوسائل: ٢٥/ ٣١٧.

فبغض النّظر عن كوننا علمنا بالحكمة أو السّر الخفي من وراء الأحكام الشرعيّة أمْ لمْ نكن نعلم، فإنّ لنا منهجنا الخاص بنا في تحديد الغذاء، والذي لا نحاكي فيه نظاماً من الأنظمة، سواء في إشباع المتطلّبات الجسديّة أو الرّوحيّة.

ولذلك ورد تفسير مصطلح الخبائث في أحاديث المعصومين عليهم السلام شاملاً لكل ماله تأثير على استقامة الرّوح والجّسد معاً، فمن تلك النّصوص التي توسّع من دائرة وعنوان الخبائث:

١- ما سبق من حديث أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن الخمرة قال: «**حرّمها لأنها أمّ الخبائث ورأس كلّ شرّ**»[١].

٢- قال الإمام العسكري عليه السلام: «**جُعِلَت الخبائث في بيت والكذب مفاتيحها**»[٢]، فأراد بالخبائث كلّ ما كان شذوذا في السّلوك، وانخراطا في طرق الفساد الأخلاقي والمنكر والبغاء.

ولهذا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الإنسانيّة نظامها الصالح، والكفيل بحلّ مشاكلها وتهذيب سلوكها، وتطهيره من كلّ مظاهر الفساد والإنحراف، فقال صلى الله عليه وآله: «**إنّما بُعِثْتُ لأتمّمَ مَكارم الأخلاق**»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «**ما مِنْ شيءٍ يقرّبكم إلى الجنّة ويباعدكم عن النّار إلا وقد أمرتكم به وما مِنْ شيءٍ يقرّبكم من النّار ويباعدكم عن الجنّة إلا وقد نهيتكم عنه**»[٤].

٣- عن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث الإستطاعة قال: «**النّاس**

(١) الوسائل: ٢٥/ ٣١٧.
(٢) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ٧٥/ ٣٧٩.
(٣) بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي: ٦٨/ ٣٨٢.
(٤) الوسائل: ١٧/ ٤٥.

كلهّم مختلفون في إصابة القول» إلى أن قال: «**ويحلّ لهم الطيّبات أخذ العلم من أهله، ويحّرم عليهم الخبائث، والخبائث قولُ من خالف**»(١).

وذلك بما أنّ من ضمن هذه الوظيفة لرسول الله ﷺ، تنبيه العقل وإرشاده وإنقاذه من الخرافات والأوهام، حيث مرّ العقل في حالة من حالات التحجّر تحت ركام الأوهام الصنميّة، فلهذا يشمل مصطلح الخبائث والعلوم الباطلة والأفكار المسمومة التي تتنافى مع سلامة القاعدة الفكريّة لرسالة الإسلام التي وطّد أسُسَها رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

* * *

الثالث: وضع الآصار والأغلال عن الأمة

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٢) وهو مايعني فاتحة التسهيل والسّماحة والتخفيف في الرّسالة. جاء في تفسير الصافي، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾(٣). يعني بـ (الإصر) الشّدائد التي كانت على من كان قبلنا، فأجاب الله تعالى نبيّه الكريم، فقال تبارك وتعالى:

«**قد رفعت عن أمّتك الآصار الّتي كانت على الأمم السالفة، كنت لا أقبل صلواتهم إلا في بقاع من الأرض معلومة اخترتها لهم وإن بعدت.**

وقد جعلت الأرض كلها لأمّتك مسجداً وطهوراً، فهذه التي كانت من الآصار على الأمم قبلك فرفعتها عن أمتك. وكانت الأمم السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة

---

(١) الوسائل: ٢٧/ ٦٧.

(٢) الأعراف: ١٥٧

(٣) البقرة: ٢٨٦

قرضوها من أجسادهم.

وقد جعلت الماء طهوراً لأمّتك، فهذه من الآصار التي كانت عليهم فرفعتها عن أمتك، وكانت الأمم السالفة تحمل قرابينها إلى بيت المقدس، فمن قبلت ذلك منه أرسلت إليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً ومن لم أقبل منه رجع مثبوراً.

وقد جعلت قربان أمتك في بطون فقرائها ومساكينها، فمن قبلت منه ذلك ضاعفت ذلك له أضعافا مضاعفة، ومن لم أقبل ذلك منه رفعت عنه عقوبات الدّنيا، وقد رفعت ذلك عن أمّتك وهي من الآصار التي كانت على الأمم قبلك»[1]، ولا شك أن رفع الآصار والأثقال عن الأمّة يرتبط بسببين هما:

الأول : طبيعة شخص الرّسول الكريم محمّد ﷺ الّذي بعثه الله عزّوجل رشحة من لطفه ورحمته إلى البشريّة، فكان قلبه ﷺ يتفجّرُ حبّاً وحناناً لكلّ الإنسانيّة ولخاصّة المؤمنين، كما قال الله عزّ وجل في وصفه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وقد قال ﷺ : **«إنّما أنا رَحْمَةٌ مُهداة»**[3].

فلأجل هذه الطبيعة الكريمة، وإكراماً لهذه الشخصية الرّحيمة، كانت فاتحة التسهيل والتخفيف في الرّسالة التي أُرسل بها النّبي ﷺ، ورُفعت بها الآصار والأغلال التي كانت قد طوقت الأمم السالفة.

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٣١٢.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) كشف الغمة: ١/ ٨.

الثاني: طبيعة الرّسالة التي بعث بها رسول الله ﷺ، وما تمتلك من عناصر القوة والإمكانات الفكريّة القادرة على إعداد الأمّة ذات المستوى الرّسالي الناهض بمسؤولية الرّسالة على أبعد مديات التأريخ.

فقد علم الله عزّ وجل هذا المستوى الذي ستصل إليه الأمّة وتكون خير أمّةٍ أُخْرِجَت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحمل هموم رسالتها العالمية، وتستوعب قواعد ومفاهيم هذه الرّسالة التي تحمل حجّتها العقلية في صميمها.

فكان الشعور بالمسؤوليّة الّذي أوقدته الرّسالة في واقع الأمّة، ثمنا قد اسْتوجب هذا اللطف الرّباني على مستوى التّسهيل والتخفيف ورفع الآصار والأثقال الّتي كانت تنوء بها الأمم السالفة.

* * *

الرابع: الإنذار باليوم الآخر

وهو - وإنْ لم يكن صريحا في منطوق الآية الكريمة - إلا أنّه يمكن استنتاجه من خلال السّياق القرآني العام، كحصادٍ لمسيرة الأمّة وموقفها تجاه الرّسالة والرّسول ﷺ، وهو بيان المصير الذي ستصير إليه البشريّة، والنهاية التي ترسو إليها سفينة الحياة.

هذه النهاية التي يجهلها النّاس لولا أنّها كانت تشكّل جزءاً كبيراً من مفاهيم الرّسالة التي بعث بها رسول الله ﷺ، دخل هذا الجزء في ضمن الوظيفة التبليغيّة لرسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

(١) الشورى: ٧.

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.[1] وقال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2].

ولاشك أنّ تبنيّ التربية على الإيمان بالآخرة، هو من أهم الخطوط الوظيفية التي تهدف إلى تربية الأمّة وإعدادها إعدادا رساليّا، إذ جعلَتْ الأمّة تؤمن برسالتين متلازمتين، رسالة لتنظيم الحياة وإدارة الأعمال والشؤون والتصرّفات على أساس منهج تشريعي عادل.

أمّا الرّسالة الأخرى فهي رسالة المعاد، التي لابدّ أن تستوعب الأمّة فصولها ومراحلها ومفاهيمها، والتي تعتبر مركز إشعاع يحسّن ويقوّم مسيرة الأمّة لأداء رسالتها في الحياة الدّنيا من ناحية، ومن ناحية أخرى تملأ ما في نفس الإنسان من طموح وتطلع إلى استيفاء نتيجة العمل الصالح والإلتزام بخط المسؤولية.

***

(١) مريم: ٣٩.

(٢) غافر: ١٥-١٦

المحور الثالث

مسؤوليّة الأمّة

تجاه الرّسول ﷺ والرّسالة

أولا: الإيمان به ﷺ

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾[1] أي: برسول الله ﷺ، وهو يلازم الإيمان بمرسِله عزّوجل، كما يدل على حكمة وعظمة المرسِل تعالى، بحكم دلالة الحكمة القائلة: (الرّسول دليل عقل المرسل)، لذلك فإن الله عزّوجل اصطفى من الرّسل والأنبياء من هو أكمل النّاس إيمانا، وأصفاهم نفسا، وأوقدهم فكراً، وأحكمهم عقلاً، وأقومهم سلوكاً.

فكان الرّسول الخاتم محمّد ﷺ، أفضل كلّ الخلق حتى الأنبياء والمرسلين، في هذه وفي غيرها من صفات القوّة، وأصالة الروح القياديّة التي تتناسب وخصوصيّة الأمّة والمرحلة الّتي بُعِثَ فيها.

إن الإيمان برسول الله ﷺ جزء من خطوط عقيدة الإنسان المسلم، ولا يستكمل الإيمان برسول الله ﷺ شروطه إلا بالشّمول الذي نص عليّه القرآن الكريم، وهو: الإيمان به وبعامة الأنبياء، وهو من أروع مثل الإسلام وقيم رسالة الرّسول محمّد ﷺ.

قال الله عزّ وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]. وقال عزّوجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾.[1]

قال المحامي محمّد عريبي، رئيس الجالية اليهوديّة في مصر، لما أعْلن إسلامه: (أعجبني من هذا الدّين، أنّه جاء مصدّقاً لما قبله، فالمؤمن من أهل الكتاب لا يقتلع مع دينه اقتلاعاً، ولاينخلع عنه انخلاعاً، فإنْ كان يهوديّاً وجد في القرآن تمجيد موسى ودين موسى، بل وتمجيد بني إسرائيل الّذين فضّلهم الله على العالمين في وقت من الأوقات، وإن كان مسيحيّا وجد في القرآن تمجيد عيسى المسيح بن مريم وتمجيد أمّه، بل وتمجيد آل عمران جميعاً، بل واعترف بهم الإسلام كإخوة مُكْرمين حيث يستأمنون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإني لأحب أن يدلني الناس على دين آخر فيه هذا التسامح ومنه هذا البعد عن النصب.

***

(١) الشورى: ١٣.

القواسم المشتركة بين عامّة الرّسُل

ولاشك أن الإيمان الشّمولي إنما يتحتّم على الإنسان المؤمن، من منطلق اشتراك الرُّسُل والأنبياء مع رسول الله محمد ﷺ في قواسم عديدة:

الأول: كون نبوتهم ورسالاتهم رشحة من لطف الله عزّ وجل وعدله بالبشريّة، ليكون توجيه العقوبة والعذاب العاجل أو الآجل بعد إقامة الحجّة وبيان ما هو الحق من معالم الطريق، قال عزّ وجل: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.(١)

الثاني: كونهم بشراً يجمعهم مع رسول الله ﷺ العنصر البشري الواحد، والخضوع إلى عوارض الطّبيعة، كالجوع والعطش والمرض والأذى والموت والرجوع إلى الله عزّ وجل، سوى ما يميّزهم عن البشريّة من كونهم يوحى إليهم.

قال عزّ وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾(٢). وقال عزّ وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾(٣).

الثالث: كونهم جميعا أصحاب مسؤوليّة واحدة، فكان جوهر دعوة كلّ نبيّ من الأنبياء هي كلمة التوحيد، كما قال الله عزّ وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(١) الإسراء: ١٥.
(٢) الأنبياء: ٧- ٨
(٣) الأنبياء: ٣٤.

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[١]

ولاشك أنّ همّهم المشترك في هذه الدّعوة، هو تحرير البشريّة من ربقة الوثنيّة، وتوحيد كلمتها تحت ظلّ كلمة (لا إله إلا الله) لتجسّدها في السلوك والتعامل.

الرابع: كونهم جميعا قد تحمّلوا تبعات هذه الدّعوة، من السّخرية والأذى، فواجهوا ذلك بالصّبر والثبات، كما قال الله عزّوجل - مخاطبا رسوله الكريم ﷺ: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾.[٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[٣] غاية الأمر، لم يؤذ نبيّ كما أوذي رسول الله ﷺ، وكما قال ﷺ: «**ما أوذيَ نبيٌّ مثل ما أوذيتْ**».[٤]

الخامس: في كون زعامتهم ربانية، لا يتكلمون ولا يفعلون ولا يأمرون ولا ينهون إلا بتخويل من السماء، لا كما يدّعي المدّعون، ويشكّك المشككون من ذوي المصالح والأنانيات، الّذين ما إن تتعارض مصالحهم ومراكزهم مع أمر السّماء إلا وأنكروا على حملة التشريع ومبلغّي الرسالات، واتهموهم بما ليس فيهم .

وهذا ما عانى منه الأنبياء جميعاً، وعانى منه رسول الله ﷺ كما خاطب الله عزّوجل نبيّه الكريم محمّداً ﷺ بذلك، فقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾.[٥]

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ

(١) الأنبياء: ٢٥.
(٢) فاطر: ٤.
(٣) الأنبياء: ٤١.
(٤) المناقب ٣/ ٢٤٧.
(٥) السجدة: ٣.

إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢]

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٣].

* * *

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) الأعراف: ٢٠٣.

(٣) النجم: ٣ – ٤ .

ثانيا: الإسناد والنصرة

﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ... ﴾ فما تفيده كلمة التعزير، هو (المنع)، لذا فإنّ التعزير للعاصي كان منعا له عن الذنب، وإلقاء الإثم عنه بالضرب .

أما استعمال هذه الكلمة في حق المؤمن، فمفاده هو منعه عن الأذى، فيكون التّعزير هنا، بمعنى: العون والنصرة بالوقوف إلى جانب الرّسول ﷺ، وإسناده بصدّ أذى الجاهلين واستخفاف المعاندين، وتسديده في خطاه نحو تطبيق ما أوحي إليه من الله عزّ وجل، والشدّ على يديه في سبيل بلوغ أهداف الرّسالة، وكان الأذى المتوجّه لرسول الله ﷺ من قبل أعدائه على مستويين:

الأول: على مستوى الأذى الجسدي، بمحاولة القتل والجرح أو التعويق، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.(١)

هذه الأساليب الثلاثة، من السجن إلى القتل أو النّفي، الّتي ورثها الطغاة والعتاة المردة خلفا عن سلف، مادام الصراع قائماً بين الحق والباطل، هي الأساليب المتّبعة في حق أنصار الإسلام وحملة الرّسالة والقائمين بتبليغها.

وهذه الآية – وإن دلّ سياقها على أنها نزلت بعد الهجرة – فإنّها جاءت في مقام تذكير الرّسول محمّد ﷺ بمؤامرة أولئك المردة، واجتماعهم في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب، وتآمرهم على تصفية الرّسول ﷺ جسديّا، إمّا بسجنه والتّربّص به

(١) الأنفال: ٣٠.

حتى الموت كما هو رأي عروة بن هشام، وإمّا بإخراجه ونفيه عن السّاحة كما هو مقترح البختري، وإمّا باجتماع القبائل على ضربه بأسيافهم، لكي لاتبوء قبيلة معيّنة بتحمّل المسؤوليّة لوحدها، كما هو مقترح أبي جهل.

فأجمعوا على هذا الرأي، وأعدّوا العدّة والجائزة لكل من يقبض على رسول الله ﷺ، فكانت الإرادة الربانية قد غلبت كيدهم ومكرهم فأخبر الله عزّ وجل نبيّه الكريم ﷺ بذلك، ليتّخذ التدابير اللازمة في إفشال هذه المؤامرة، وكما اعتادت السماء أن تمد المؤمنين بالعناية والنصر - وبأي سبب من الأسباب - كما قال عزّ وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

فكان نسيج العنكبوت قد غيّر مسيرة التأريخ لصالح الرّسول والرّسالة، لتبقى كلمة الله هي العليّا وكلمة الّذين كفروا السفلى.

الثاني: على مستوى الأذى المعنوي، وهو المساس بشخصيّة الرّسول محمّد ﷺ والسخرية منه، والإستخفاف بقدره وكرامته، كما فعل الرّعيل الأول من الجاهلين والمعاندين الذين اتهّموه بالسّحر والكذب والجنون حيث أشارت إلى ذلك آيات الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.[4]

ولم ينفك الأذى عن رسول الله ﷺ على امتداد الزّمن، وما دامت رسالته تتحدّى

(١) المجادلة: ٢١.
(٢) ص: ٤.
(٣) الصّافات: ٣٦.
(٤) الدخان: ١٤.

كافّة الأطروحات الزائفة، وتقف في وجه الإنحراف والفساد بكل أشكاله وأنواعه، وإلى هذا الوقت الذي أحدثه ورثة أبي جهل وعروة بن هشام وأبي لهب وغيرهم من العتاة والنواصب، من استهانة وسخرية بشخصية الرّسول الكريم محمّد ﷺ على مستوى الصّحف الدنماركيّة، التي سبق وأن عرضت رسوما كاريكاتيريّة ساخرة بالرّسول محمّد ﷺ.

فلا أعتقد أنّ لهذا تأثيراً على المسيرة التغييريّة والسّوامق الفكريّة لصاحب الرّسالة، بقدر ما أثبتت للعالم أجمع مايحمل أبناء الإسلام وأتباع الرّسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من وهج الإيمان برسالتهم، حيث هبّت الجماهير المسلمة في كافة أنحاء العالم الإسلامي، مستنكرةً ومندّدةً بمروّجي تلك الصحف.

غاية الأمر، أنّ عجلة السخرية والكيد لرسول الله ﷺ ورسالته وأتباعه، لاتنتهي مادامت الرّسالة قد أدّت دورها في إيقاد الشعور الإسلامي في العالم.

لأن خطر الإسلام على الجاهلية عظيم، كما كان يتحسس أبوجهل وأتباعه من أقطاب الشرك والوثنية، أن يقوض الإسلام سلطانهم وهيمنتهم الطاغوتية.

ولئن فات الأمّة أن تقف إلى جانب الرّسول محمّد ﷺ في حال حياته من أجل حمايته من أذى المشركين، فإن مسؤوليّتها اليوم تتمثل في الإلتزام بمبادئ الرّسالة، واستيعاب مفاهيمها والتخلق بأخلاقها، ودفع الشّبهات والطّعون عن شخصية رسول الله ﷺ، الذي مازال يلقى الأذى ممن انتحلوا الإسلام وعدّوا أنفسهم من المسلمين وماهم إلا من المستسلمين للواقع الفاسد، لأنهم لم يغاروا على رسول الإسلام، ولم يكرموا مقامه، ولم يحفظوا ذمامه في حرمة دم ولا مال ولا عرض.

فما برحوا يؤذونه كما آذاه أسلافهم من قبل، حيث تناسوا وصيّة القرآن الكريم وحثه

للأمّة على توقير مقام الرّسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[1]، وتتمثل مظاهر تكريم الرّسول ﷺ وتوقيره من خلال ثلاثة بيانات:

أ - قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[2].

فقد وقع صدى هذه الآية كالصّاعقة على رأس ثابت بن قيس بن شماس، وكان رفيع الصّوت، فقال: ويحي أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، حبط عملي أنا من أهل النار، فمكث في بيته حزينا.

فافتقده رسول الله ﷺ فمضى إليه الصحابة ليسألوا عن حاله، وليخبروه بأن رسول الله ﷺ افتقده، فقال لهم بالحال الذي هو فيه من الندم، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بذلك، فقال ﷺ: «**لا بل هو من أهل الجنّة**»، فلما كان يوم اليمامة استشهد في المعركة.

وعندما ننظر إلى مجرّد سبب نزول الآية الكريمة، نكون قد حدّدنا سنّة التوقير لرسول الله ﷺ والأدب معه في حدود حياته، وفي حدود الجيل الأول الذي عاصره فقط، بينما علينا أن نؤمن بأنّ رسول الله ﷺ لايزال في الأمّة ومعها في كلّ فصل من فصول وجودها، وفي كل قضيّة من قضاياها الفردية والإجتماعية، وذلك:

١- لأنه مع الأمة بهداه ورسالته ومنهاجه، فلا ينبغي أن يكون موته ﷺ موجبا لإنحرافها وضياعها في أسر التيارات الفكرية والثقافات الضالة ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

(١) الفتح: ٩.
(٢) الحجرات: ٢.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[١].

٢- لأنه مع الأمة بدعائه لها بالعفو، لأنه لا يسره أن يراها معذبة مهانة في نار جهنم، لذا قال ﷺ: «**حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، فأما حياتي فإن الله هداكم بي من الضلالة، وأنقذكم من شفا حفرة من النار، وأما مماتي فإن أعمالكم تعرض عليّ، فما كان من حسن استزدت الله لكم، وما كان من قبيح استغفرت الله لكم**».

فقال له رجل من المنافقين: كيف ذاك يارسول الله وقد رممت - أي: صرت رميما-؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**كلا، فإن الله حرم لحومنا على الأرض فلا تطعم منها شيئا**»[٢] وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: «**إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام**»[٣]

٣- لأنه مع الأمة في الرقابة ودقة الملاحظة والمتابعة لإلتزاماتها، في أقوالها وأفعالها وعلاقاتها ونشاطاتها، فما كان من حسنة تسره، وما كان من سيئة تحزنه، وكما جاء في تفسير الطبري: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : لِأَصْحَابِ نَبِيِّ الله ﷺ : وَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ، فَاتَّقُوا اللهَ أَنْ تَقُولُوا الْبَاطِلَ ، وَتَفْتَرُوا الْكَذِبَ ، فَإِنَّ اللهَ يُخْبِرُهُ أَخْبَارَكُمْ ، وَيُعَرِّفُهُ أَنْبَاءَكُمْ ، وَيُقَوِّمُهُ عَلَى الصَّوَابِ فِي أُمُورِهِ»[٤]

وعليه، فإذا ما وسّعنا من أفق خطاب الله عزّ وجل للأمّة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ

(١) آل عمران: ١٤٤

(٢) بحار الأنوار: ٢٢ / ٥٥٠

(٣) بحار الأنوار: ٩٧ / ١٨١ .

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ المجلد١١ص٣٨٥.

فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾[١]، ينبغي أن نفهم أن رفع الصّوت فوق صوت رسول الله ﷺ يعني بالنّسبة لنا: التلاعب، بمقرراته، وتحليل حرامه وتحريم حلاله، والإختلاق والتحايل على أحكام الشّريعة وقوانينها، وتسخيرها تبعا للأهواء والأمزجة والأذواق والمصالح الخاصّة.

ولذا فإن خفض الصّوت عند رسول الله ﷺ يعني بالنسبة لنا، الكناية عن تواضعنا لمقامه، وتحكيمه في جميع قضايانا، والتسليم لمقرراته، والتصاغر أمام أوج عظمته وعلوّ قدره.

وهذا الشعور هو من العلامات والدلائل على عمق الإيمان والتقوى كما نصّت الآيـة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٢].

وإلّا فما هي الصّلة بين خفض الصّوت وبين تقوى القلب، لولا إيمان القلب بالإحتياج الدائم إلى عطاء هذه الشخصيّة المسدّدة والمؤيّدة من الله عزّ وجل، ولولا الشعور بالقصور عن تدبير الأمور، مهما نمت وتطوّرت الإمكانات والقدرات ؟.

لذا يجب علينا أن نربي أنفسنا – كواقع مسلم – على الوفاء لصاحب الرّسالة لكونه معنا وفينا، وعلى كيفية الرّجوع إلى القاعدة الرّوحية التي أسّسها لنا، متى طافت بنا عناصر الضلال لحرفنا عن خط رسالتنا الإسلامية، ومتى قعد لنا جنود الشيطان لتشويه عقيدتنا ومفاهيمنا وأخلاقنا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[٣].

---

(١) الحجرات: ٧.

(٢) الحجرات: ٤.

(٣) الأعراف: ٢٠١

٢- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1] فتعتبر الصّلاة على رسول الله ﷺ دعاء له بالبركة والعناية من الله عزّ وجل.

وهذا الدعاء لمن أوثق الروابط والصّلات بين الأمّة ورسولها الأمجد أبي القاسم محمّد ﷺ، ومن أبرز الدلائل على الحب الذي تحمله الأمّة لرسولها الكريم ﷺ، خصوصا إذا ماعرفنا بأن الأمر بهذا الدّعاء موجّه من السّماء بصيغة الأمر، وبذلك تكون الأمّة قد أحرزت بهذا الإلتزام تجاه رسول الله ﷺ ثلاث نتائج، هي:

الأولى: أنها امتثلت أمراً من أوامر الله عزّ وجل، وأدّت واجباً من الواجبات الأخلاقية تجاه رسول الله ﷺ، تستوجب به مرضاة المولى الكريم عزّ وجل في الدنيا والآخرة.

الثانية: أنها قد أدامت الصلة برسولها ﷺ بالذكر والثناء الجميل عليه، لقاء ما أدّاه من الجهد والعناء في سبيلها بدعوتها إلى مرفأ الخير والسعادة والسلام والعز.

الثالثة: أنها قد تحدّت التيارالعدائي المتنكر، الذي يرى في الصلاة على رسول الله ﷺ بدعة وضلالاً عن الإسلام، خلافا لكل قيم ومبادئ الرّسالة والقرآن، وأثبتت من خلال الصّلاة على رسول الله ﷺ تسليمها وانقيادها لكل ما يقول الرّسول ويأمر به.

عن أبي حمزة الثمالي، عن أبيه، قال: سألت أباعبد الله عليه السلام، عن قول الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.

فقال عليه السلام: «**الصّلاة من الله عزّ وجل رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن النّاس دعاء،**

(١) الأحزاب: ٥٦

وأما قول الله عزوجل: وسلموا تسليما، فإنّه يعني التسليم فيما ورد عنه».

قال: فقلت: كيف نصلي على محمّد وآله؟.

قال عليه السلام: «**تقولون: صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمّد وآل محمّد والسّلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته**»(١).

ويروي البخاري وصاحب الصّواعق المحرقة، أن الآية لمّا نزلت، قال الصّحابة: يارسول الله، علّمتنا كيف نسلّم عليّك، فعلّمنا كيف نصلّي عليك؟ قال ﷺ: «**أن تقولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد**»(٢).

ولا ضير في اختلاف الصّيغ التي يؤدّي بها المؤمن عنوان الصّلاة على النبي ﷺ، بل المهم أن لا تكون صلاة بتراء، وهي الخالية عن ذكر الآل عليهم السلام.

وبما أن الصّلاة على النبي ﷺ تكشف وتعبّر من حقيقة المحبّة له، فهي كذلك مجلاة لهموم الدنيا، كما روي عنه ﷺ أنه قال: «**أتاني آتٍ من ربي عزّ وجل، فقال: ما من عبد يصليّ عليك صلاة إلا صلّى الله عليه بها عشرا**».

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، أأجعل نصف دعائي لك؟

قال ﷺ: «**إن شئت**».

قال الرجل: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟

قال ﷺ: «**إن شئت**».

قال الرجل: ألا أجعل دعائي كله لك؟

---

(١) بحار الأنوار: ٩١ / ٥٥

(٢) صحيح البخاري / ج٤ص١١٩، الصواعق المحرقة / للهيتمي/ ص٢٢٥.

فقال ﷺ: «**إذن يكفيك الله همّ الدنيا والآخرة**».

٢- قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[١]، وهي من البيانات الّتي تؤكّد - أيضا - أن من مظاهر تكريم رسول الله ﷺ وتوقيره مودّة قرباه. فقد نزلت الآية الكريمة بعد أن استحكمت جذور الدّولة الإسلاميّة في المدينة، فجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا رسول الله، إن يعرك شيء أو أمر فهذه أموالنا دونك خذ منها ما تشاء.

فأنزل الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾، فقرأها ﷺ عليهم وقال: «**تودّون قرابتي من بعدي**»، فسلّموا بذلك إلا جملة من المنافقين، قالوا: إن هذا لشيء افتراه يريد أن يذللنا لقرابته من بعده.

فأنزل الله عزّ وجل قوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[٢] فأرسل ﷺ إليهم فتلاها عليهم، فبكوا وعظم عليهم ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾[٣]، فبشّرهم بها رسول الله ﷺ[٤]. أما حصر أجر الرّسالة في مودّة أهل البيت عليهم السلام، فإنّه يرمز إلى أمرين مهمّين:

الأول: يرمزهذا الحصر الى كونهم عليهم السلام مركز الثقل بعد رسول الله ﷺ، وأنهم القادة إلى سبيل الحق والرّشاد بما يمثلونه عليهم السلام من الإمتداديّة الضروريّة للرسول الكريم محمّد ﷺ، وأنّ جهودهم في حماية الرّسالة تساوي جهود الرّسول ﷺ الّتي بذلها في التبليغ وهداية الأمّة.

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) الشورى: ٢٤.

(٣) الشورى: ٢٥.

(٤) ينظر بحار الأنوار/ للعلامة المجلسي/ ج٢٣،ص٢٣١.

الثاني: تعبّر مودّة أهل البيت عليهم السلام عن وفاء الأمّة لرسول الله ﷺ بجزء من حقوقه عليّها، وهو حفظه في أهله وقرابته، إذ لم يطلب الرّسول ﷺ لقاء ما قدّمه للأمّة من النصح والهداية مالا، ولا ذهبا ولا قصورا مشيّدة، لأنّ الرّسالة أرفع شأناً من أن تعادل بالدنيا وزُخرفها.

بل سألها مودّة ذوي القربى أجراً لكل ما قدّمه من جهاد وجهود، لما تمثله مودّة أهل البيت عليهم السلام، من التحام بمركز الإشعاع الإسلامي الخالد.

***

ثالثا: الإتّباع والطاعة

﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾[١] أي أطاعوه بعد الإيمان به وتوقيره، وذلك أن الله عزّوجل ألقى على نبيّه ﷺ حلّة النبّوة.

وهذه الحلّة قد حملت معها مسؤوليّة قد أدّاها رسول الله ﷺ على مستوى تبليغ الرّسالة وهداية الأمّة إليها، وحملت من ناحية أخرى مسؤوليّة الأمّة تجاه هذه الرّسالة، والّتي تتوّجها الطّاعة، والعمل بما أنزل على رسول الله ﷺ.

وقد نصّ القرآن الكريم على وجوب طاعة الرّسول ﷺ، تارة بالنّص العام، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[٢]، وتارة أخرى بالنّص الخاص.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[٣].

ويعرض القرآن في نفس السياق من النماذج البشرية المذبذبة هنا وهناك، من الذين يتحركون في إطار القول والإدعاء دون العمل والتطبيق لمقررات صاحب الرسالة، ولم يصدقوا تجربتهم فيما يدعون من الإيمان.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) النساء: ٦٤.
(٣) النساء: ٥٩.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1].

فقرّر القرآن بأنهم غير صادقين فيما يدّعون من الإيمان بالرسول والرسالة، مالم يذعنوا لمقرّرات الله تعالى ورسوله، ويتنازلوا عن أهوائهم ومصالحهم ومطامعهم الدنيويّة الخاصّة.

فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.[2]

وفي مجال الحكم – أيضا – جاء قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3].

هذه صورة أخرى من صور الواقع الإجتماعي، الذي يمتنع أهله من التحاكم إلى رسالة الله فيما شجر بينهم، لأنهم لا يؤمنون بنتيجة الحكم مالم تكن لصالحهم.

فهم قد يتحاكمون إلى الله ورسوله باديء الأمر، ولكن بشرط أن يكون الحق لهم، ووفقا لأهوائهم ومصالحهم وأنانياتهم، ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾، حيث أفادت الآية: أنهم – بهذا التذبذب – لا يخلون من هذه الدوافع مجتمعة أو منفردة:

- أن يكونوا مرضى القلوب والألباب

---

(١) النساء: ٦٠

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) النور: ٤٧ – ٥٠ .

- أن يكونوا في حالة الريب والشك من صحة النتيجة.
- أن يكونوا مهزوزي الإيمان بالله عزوجل، لذا يخافون ان يحيف عليهم في الحكم .

فقد أسّس القرآن الكريم بهذه النّصوص وغيرها، لطاعة الرّسول ﷺ أهمّية كبرى في وجدان الأمّة، وأخضع وجودها وكافة قضاياها لأحكام وحلول الرّسالة التي حملها وبلغها.

وجعل الرجوع في النزاعات والخصومات إلى الله ورسوله، والرضا بالقضاء والحكم دليلاً على صدق الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فقد أراد القرآن بهذا الأمر أن يرفع، عن القلوب كافّة الميول والأهواء والحرج، ويرفع كل ما يعترض نفوذ الحكم. وأن يحقق الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ، والتي بها تتحقق الطاعة المطلقة لله، كما قرر عزّ وجل ذلك في كتابه الكريم فقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.[2]

وبهذا تكون طاعة الرّسول ﷺ واتّباع النّور الّذي أنزل معه، قد حقّق للأمّة صمّام الأمان والسلام من الأدوار التي تهدّد وجودها.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه لرسول الله ﷺ: «**طبيب دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي،**

(١) النور: ٥١

(٢) النساء: ٨٠.

وآذان صمّ، وألسنة بكم، متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة»[١]، لأن طاعة الرّسول ﷺ تحقق نتيجتين متلازمتين:

١- تغيير المحتوى الدّاخلي، وتوثيق الرّابطة الرّوحيّة بالله عزّ وجل، والتي على أساسها يتم بناء الرّابطة بين أبناء الأمّة، كما جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «**من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس**».[٢]

٢- إنقاذ الأمّة من الفتن والمشاكل المعقدة الّتي تكتنف وجودها من خارجها، وذلك يتم بالتمسّك بالثوابت والأسس المعرفيّة الّتي أسّسها رسول الله ﷺ، وبالإستناد إلى سرّ القوّة الّذي تحرك به رسول الله ﷺ في سبيل ترسيخ قواعد رسالة الأمّة وبنائها الإجتماعي.

***

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٨٣.
(٢) الوسائل: ١٥/ ٢٩٧.

سرّ القوّة في البناء الإجتماعي

ويتمثل سرّ القوة في الحركة الرّسالية التي حمل أعباءها، وخاض عبابها رسول الله ﷺ، يتمثل هذا السرّ في الملامح التالية للبناء الإجتماعي:

أ - الإيمان: في أقوى عراه، وهو الإيمان الذي لم يخالطه ريب ولا رياء ولا تهاون، والذي ما أحوج الأمّة إليه اليوم في حركتها، وفي مقارعتها للباطل على ساحة الصّراع المرير، الذي لم تكتب له النهاية إلا بتحقيق الوعد الرّباني لهذه الأمّة.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٣].

ب - التلاحم والصداقة: في أكمل صورهما، في أولئك النفر الغر الميامين، الذين تركوا ديارهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله، أولئك الذين استعذبوا العذاب، واستهانوا بالصعاب، الذين تداخل موقعهم في نصرة الرسالة، مع موقع الذين آووا، ونصروا، وأعطوا، وبذلوا لإخوانهم كل أسباب الإسناد والنصرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤].

(٣) النور: ٥٥.

(٤) الحشر: ٩

ج - الفداء: في أروع مناظره في علي بن أبي طالب عليه السلام ذلكم الذي أجرى الله الحكمة في قلبه وعلى لسانه مذ كان طفلا يوم سئل عن سبب إسلامه، وقيل له: هل استأذنت أباك؟.

فأجاب على الفور بروح البلاغة العلوية ونفحة الإيمان السماوي فقال: إن الله تعالى لم يستأذن أبي حين خلقني، فكيف استأذن أبي في عبادة ربي؟ ذلكم الذي أبى إلا أن يفدي الرسول ﷺ بنفسه يوم الهجرة، فتسجّى ببردته وكأنما تدرّع بالسماوات السبع، ونام قرير العين في ساحة الرّوع ومعترك المنايا السود.

فنزل فيه قوله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]، تثمينا لهذا الموقف الذي غيرّ المعادلة وربح الموقف التأريخي لصالح الرسول والرسالة.

د - المروءة: في أجمل ثيابها في موقف الأنصار من المهاجرين، من إخوانهم الذين تركوا كل مالديهم، فوجدوا في الأنصار أهلا أوداء وأوفياء.

فما كان ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة، وأبى الأنصار إلا أن يقاسمهم إخوانهم أنصاف ما يملكون من مال ومتاع، وأن يؤثروهم في أوفر الأقسام.

فقابل المهاجرون هذا الشعور الإنساني بشعور يماثله، وهو شعور العفة والإباء فأبوا أن يعيشوا كلّاً على الأنصار، وأبى البعض إلا أن يعمل بالتجارة.

وقد خلد القرآن الكريم هذه المروءة والإيثار بقوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

---

(١) - البقرة: ٢٠٧

(٢) الحشر: ٩

هـ – الأمل: في أوثق ألوانه وأرحب وأوسع آفاقه، في نفس رسول الله ﷺ، إذ كان واثقا بأن الغد معه وآتيه وإن أدبر عنه اليوم، أواكفهر في وجهه الناس، وإن النصر والحق معه وإن غضبت كل الدنيا وأتباعها، وهو القائل عند نزول كل أذى وبلاء، في مناجاته لربه عزّ وجل حين لاحقه أهل الطائف: «**إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي**»[1].

وما أحوج أبناء الأمة ومجاهديها اليوم إلى مثل هذا الأمل، الذي يستبطن الزخم الهائل من القوة والثبات في ساحة الصراع والتحدي ضد كل أشكال الكفر والنفاق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

(١) بحار الأنوار/ العلامة المجلسي / ج١٩ص٢٢.

المحتويات

تمهيد	٥
محمّد ﷺ بين الأزل والحدوث	١١
حاجتنا إلى الرسول محمد ﷺ	١٥
المثل الأعلى للأسوة الحسنة	١٧
دعوى عدم الحاجة إلى الوحي	٢١
عناصر القوة في شخصية الرسول ﷺ	٢٧
مجتمعنا وثقافة الوهم	٣٩
وقفة مع الحوارات المعاصرة	٥١
الرسول ﷺ والتركيبة الإجتماعية	٥٩
التشدق بأمّة ما قبل الإسلام	٦٥
الرسول ﷺ وعملية التغيير المضنية	٦٧
الهجرة حركة من أجل التغيير	٦٩
ميزات الهجرة الثانية	٧١
الهجرة في التأريخ الحديث	٧٣
متى تكون الهجْرة مشروعة	٧٧
الخطوط الشاملة لوظيفة الرسول ﷺ	٨١
هل من رأي للمفسرين؟	٨٩

أولا: الإيمان به ﷺ ٩٩
القواسم المشتركة بين عامّة الرّسُل ١٠١
ثانيا: الإسناد والنصرة ١٠٥
ثالثا: الإتّباع والطاعة ١١٥
سرّ القوّة في البناء الإجتماعي ١١٩